# جدران الألم

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيبلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books ـ بيبلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

# جدران الألم

مجموعة قصصية

يارا عماد الناطور

**لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.**

**All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.**

بيبلومانيا للنشر والتوزيع

書誌事項

- **الكتاب: جدران الألم**
- **المؤلف: يارا عماد الناطور**
- **نوع العمل: مجموعة قصصية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2019 / 6618**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-95-2**

- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- الغلاف: ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: 27 شارع جمال الدين دويدار من عباس العقاد – مدينة نصر - القاهرة
  38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

**كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع**

# الإهداء

إلى الذين وضعوا الصخور وحفروا الحفر حتى أقع بها في طريقي ...

شكراً لكم

فلولاكم لم أتقن القفز فوق السحاب والطيران....
إلى أولئك الذين يبيتون في قلبي ويستوطنونه ومهما مرت الأيام يبقون له أوفى الساكنين...
إلى عيون أسكنتها بين جفني وحدقي فباتت أقرب إلي من روحي....
إلى ببلومانيا القلب التي وهبت قلبي وروحي سعادتي بتحقيق حلمي...ببلومانيا القلب شكراً من القلب...

وإليكم جميعاً أحبائي في الله أستودعكم قطعة من روحي داخل هذا الكتاب

يارا

# جدران الألم

كان كمال يجلس في تلك الزاوية المظلمة الرطبة، يستنشق فيها روائح تقتل في الانسان كل شيء جميل، كان الجو بارداً جداً وكانت ملابسه متسخة وممزقة عليها أثار دماء، لم يغسلها إلا ذلك الماء البارد الذي كانوا كل يوم يرمونه به.

كانت عتمة السجن وبشاعة الرائحة وفظاعة الأصوات تنطفئ كلها في اللحظة التي يدخل فيها حالة الأحلام التي تأخذه من مكانه إلى أماكن أخرى تشتهيها نفسه، في الحقيقة أنه لولا تلك الأحلام لم يبقى حيّاً كل هذا الوقت.. خمس سنوات لم ير فيها الشمس ولم ير حتى وجه سجانه ...ولكنه كان يعرف أصواتهم جيداً ليس فقط أصواتهم وإنما كل صوت في السجن حتى وقع أقدامهم، فهو خلال تلك السنوات لم يقم بشيء سوى أن يستمع إلى تلك الأصوات أو أن يحلم بنفسه خارج كل ذلك الواقع.

أما الاستماع فكانوا يربطون عينيه كلما أرادوا التحقيق معه ويستمرون بضربه وهم يطرحون الأسئلة والتي خلال السنوات الخمس لم يعرف إجابتها قط رغم محاولاته العديدة أن يختار الجواب الصحيح ولكنه دائماً ما كان يخطئ.

لم يعرف أبداً لماذا كانوا مصرين أن يغطوا عينيه فهم يعرفون حقاً أنه أضعف من أن ينظر في أعينهم، كان يرغب فقط أن يسرق من سجنه ضوءاً بسيطاً فقط ليتأكد أنه مازال يرى جيداً وأن عينيه مازالتا بخير ولكنه عبثاً كان يحاول أو يطلب.

كان أيضاً يستطيع سماع أصوات أشخاص أخرين معه في نفس المكان حيث كانت تلك الجدران القاتمة تفصلهم، كانوا يتألمون تارة ويصرخون تارة، يبكون تارة، ويغنون تارة، ويرقصون ألما تارة أخرى. كان يحزن ويبكي كثيراً إذا غاب صوت أحدهم فهو يعلم حقاً بأنه إن غاب صوتهم عن مسامعه فقد غاب وجودهم عن هذه الحياة. وأما أن يحلم فدائماً كان يحلم بزوجته وأطفاله، كان لديه ابنتان حلوتان كالسكر، وزوجته قد سرقت جمالها من كل شيء بديع في هذه الدنيا، كان دائماً يسأل نفسه عده مرات كيف لهذه الملاك أن تكون زوجتي وأم اطفالي، كان يعيش معهم كل يوم بكامل تفاصيله حتى أنه بكى في أول يوم لابنتيه في المدرسة، كان يذهب ليلاً ويأخذ السن المكسورة من تحت وسادتهما ويضع بدلاً منه مالاً وينتظر حتى يستيقظن.. ويضحك كثير حين يتخيل سعادتهما وكأنهما وجدتا كنزاً ثميناً. كان يحتضن زوجته في كل يوم وينام منتشياً برائحتها التي يعشقها والتي كانت تقتل كل الروائح الكريهة التي من حوله تطفيء كل الأصوات.

لم يكن يعلم حقاً كم يوماً قد غاب عنهم، كان دائماً يرجوهم أثناء التحقيق أن يخبروه فقط تاريخ اليوم أو كم هي الساعة ولكن عبثاً كانت كل محاولاته.

في يوم من الأيام سمع أصوات أقدام وصراخ تقترب حاول أن يستمع إلى الصوت جيداً فوجده صوت امرأة تبكي وترجوهم أن يتركوها تذهب إلى أولادها الذين تركتهم عند جارتها حتى تشتري لهم الطعام وتعود ولكن عبثاً كانت تحاول وضعوها في الزنزانة المقابلة وذهبوا.
ناداها قائلا،: إهدئي يا أختي إهدئي فمهما صرخت لن يسمع صوتك أحد ، ولكنها لم تهدأ أبداً، بدأت تخبره بأنها يجب أن تذهب إلى أولادها الصغار فوالدهم قد مات وتركهم لها، بقيت على هذه الحال وقتاً طويل حتى بدأ صوتها يختفي وكأنها نامت وهي تبكي، وغلبه النوم هو أيضاً ليستيقظ بعدها بقليل على صوت صراخها ولكنها هذه المرة كانت تستنجد وتتألم وتصرخ كانت تتوسل أحداً ما أن يخلصها من قهرها تصرخ اقتلني أرجوك اقتلني ولا تفعل بي هذا، اقتلني ولا تلمسني. كان ينهال عليها بأقبح الشتائم وينهش من لحمها وشرفها وكرامتها كالوحش الذي تخلى عن أي صلة له بالبشرية ، كان صوت بكائها أكثر شيء عذبه في حياته , لم يتألم هكذا حتى عندما أحرقوا جسده أو حين انتزعوا أظافره كان هذا الألم أشد وأعمق , كان يسمع صوت كل

امرأة عرفها يوماً صوت أمه و أخته وزوجته وبناته متداخلاً مع صوت تلك المرأة المسكينة ..كان يتخيل وجوههن ممزوجة بوجهها الذي لم يره قط وفي لحظة قال في نفسه وماذا لو كانت هذه المرأة هي إحداهن حقا؟..

ماذا لو كان صوت هذه المرأة هو صوت زوجته أو أخته حقا؟.. فقد غاب عنهن كثيراً ولَم يعرف ماذا حل بهن..

كادت كل تلك الأفكار أن تسحق كل خلية حية مازالت في جسده.. كانت تمتزج جميعها في دماغه امتزاجاً أدخله في دوامة شديدة فقد وعيه بعدها ولم يصح إلا وقد خيم الصمت الشديد على المكان.. نهض مسرعاً ونادى: "أختي...أختي هل أنت هنا؟ ...أختي هل أنت بخير؟". ولكنه لم يسمع أي صوت واستمر بمناداتها حتى سمع صوت يقول: "لقد أخذوها من هنا ...إهدئي "كان الصوت من الزنزانة المجاورة له ...شعر بحزن شديد على تلك السيدة التي كان يجهل مصيرها، ثم سأله كمال:" ماذا حدث أخبرني"، رد عليه ذلك الصوت "كما يحدث لكل بلادنا فهدأ " كان الصوت قريباً جداً وكأن ما يفصلهما جدار واحد .... وأخيراً بعد كل هذه الأيام التي قضاها يحادث جدران زنزانته مرة والسقف مرة والأرضية مرة أخرى. قال كمال له بلهفة: " من أنت؟.. لم أسمع صوتك من قبل هنا " رد عليه:" أنا أخ لك من مكان ما هنا أو هناك ".. عرف حينها أنه لا يريد البوح باسمه ولكنه وضع له ألف

مبرر ومبرر فحتى هو بدأ ينسى اسمه.. وما فائدة الأسماء في تلك الزنزانات القاتلة؟!..

وبعد لحظات من الصمت قال كمال: أتعرف كم الساعة؟ أتعرف ما هو تاريخ اليوم؟؟

رد عليه بصوت وكأنه غير مكترث:" أما الساعة فهي لا تهم الآن أبداً.. فالوقت بين هذه الجدران هو أداة تعذيب بحد ذاته. وأما اليوم فهو إما أن يكون الثلاثاء أو الأربعاء أو حتى الخميس لست متأكد ولكن ما أنا متأكد منه حقاً أننا في نيسان عام **2017**.. "

قاطعه كمال بصوت مفزوع:" نيسان ؟**2017**؟ يا إلهي.. يا إلهي لقد غبت كثيرا إنني هنا منذ أيار **2012**" بدأ يحسب على يديه " **1.2.3.4.5**": وشهق قائلاً: "خمس سنوات أكلت هذه الزنزانة المقيتة من عمري.... " قاطعه ذلك الصوت وقد بدا وكأنه يسخر: خمس سنوات أنا أكيد بأنك فجرت دبابة أو أسقطت طائرة أو حتى ...لم تفعل شيئاً.. فالكل هنا مجرم.. أنت وأنا كلنا مجرمون لأننا نتنفس الهواء

ولأننا نتألم ولأننا.. نعيش ... أو نحلم حتى...

حل الصمت في المكان ...وغرق صديقنا في تلك السنوات الخمس ...كان يفكر هل خمس سنوات هو رقم كبير أم صغير ...هو في أحلامه قد تخطى سنين عديدة وصغيرتاه قد أصبحتا شابتين.. لم يعلم حقاً، أكان عليه أن يحزن لأن كل تلك الأحلام لم تكن تحدث حقاً كما

تخيلها بالضبط؟! وهو الذي كان يشعر بتفاصيلها وكأنها حقيقة تلامس كل حقيقة موجودة في سجنه كالعتمة والعفن والرطوبة كالألم والحزن والوحدة.

أم أن عليه أن يفرح لأن لديه أمل أن يعيش كل هذه التفاصيل من جديد معهم على أرض الواقع وغفى من جديد مع أفكاره التي كانت تحوم في عقله..

استيقظ بعد حين على وقع أصوت أقدام سجانه، وقد بدأت بالاقتراب من بابه أكثر فأكثر كان الصوت أقوى من قرع الطبول، كان يعرف حقاً أن دوره قد حان ليذهب إلى غرفة الألم أو هكذا كان يسميها بسبب الألآم التي يعانيها هناك والألآم التي يحملها معه من هناك الى زنزانته حين يعود، طرق بابه ثلاث طرقات وكانت تلك الإشارة حتى يربط عينيه ولكنه هذه المرة قرر ألا يخاف لأول مرة منذ اعتقاله هنا، ويترك مجالاً من تحت الرباط يرى من خلاله طريقه والضوء.

وقف وظهره الى الباب ...فتح الباب...وضعت السلاسل في يديه ,ثم ساقه إلى الرواق , كثيراً ما كان يرسم صوراً برأسه له ..كان يظن أنه معتم كزنزانته ..ولكنه رآه ضيقاً جداً مضاء بضوء أصفر خافت عرفه من انعكاس صورته على بقعة ماء على الأرض .....ثم خرج بعدها إلى درج كان يبدو أن في نهايته ضوء، فالضوء كان يزداد مع كل خطوة يرتفع فيها , كان يعد الدراجات كالطفل الذي يعد عيديته في العيد

فرحاً بها ,وأخيراً هناك ضوء قوي دافئ ...نعم أنها الشمس أخيراً منذ خمس سنوات لم يرى هذا الضوء كانت روحه ترقص فرحاً بالشمس والتي خلال الخمس سنوات كان أقصى أمنياته أن يرى ضوءها ويشعر بدفئها ..

وصل إلى باب أسود كبير أدخله السجان وضعه على كرسي وربط يديه وقال له: اليوم ستعترف بكل ذنوبك وإلا لن تخرج من هنا حيّاً أبداً.

أثارت تلك الكلمات خوف كمال كثيراً وأحـس أن نهايته قد حانت.

كان كمال يحرك عينيه على الأرض التي كان كثيراً ما يحلم بها محاولاً أن ينسى ما يحدث معه في تلك الغرفة.. كان يتأمل والأغراض المرمية هنا وهناك، قادته رائحة كرية اشتمها في الغرفة إلى الزاوية المقابلة له، لم يكن ما رآه واضحاً جداً ،حاول أن يركز أكثر ...وكانت الصدمة حين أدرك أن تلك الرائحة الكريهة المنبعثة هي من جسد رجل مقتول، وقد غرق بدمه الذي سال على الأرض.

حاول جاهداً أن يتماسك لأنه يعلم حقاً انه لو نبس بأي كلمة أو اكتشف المحقق بأنه يرى سيلقى نفس مصير ذلك الرجل، كان الصمت يملأ المكان وكانت عدد دقات قلبه تزداد وتزداد ... رأى بيد المحقق شيئاً غريباً كان يبدو وكأنه كبل بملقطين معدنيين كبيرين وضعهما في المناطق الحساسة ورمى عليه دلو ماء بارد وقال له مع

ضحكة سمجة: الرقص على أنغام الكهرباء مع حمام بارد سيكون ممتع لك.)

لم تكن هذه المرة الأولى التي يعذب فيها بالكهرباء ولكنه لأول مرة شعر بكم هائل من الخوف. ربما لأنه رأى ذلك الرجل المرمي أو ربما لأنه رأى أداة تعذيبه للمرة الأولى ...لم يكن يعلم حقاً ما هو السبب ولكنه عرف حينها أن ثمن ذلك الضوء الذي رأته عينيه ثمين جداً.

سأله المحقق: ألن تتحدث وتقول ماذا كنت تعمل مع المجموعات الإرهابية؟ ألن تخبرنا كم جندياً قتلتم وأين تخبؤون السلاح؟ حسناً لاتتحدث سأجعل الكهرباء تنفض جسدك نفضاً..

بدأ جسده يرتعش حتى قبل أن تصل إليه الكهرباء، هو لم يعلم حقاً عّم يتحدثون، هو فقط شارك بتشييع أحد شهداء المظاهرات، لم يعايش أي شيئاً مما قالوه، لا قتل ولا حرق ولا تدمير ولا حتى سلاح حتى أنه لم يسمع بأسماء هؤلاء الشباب الذين لم ينفكوا يسألونه عنهم ...كان يقول في نفسه دائماً أنا لم أفعل شيء وفعلوا بي كل ما فعلوا ... ماذا يا ترى سيفعلون بأولئك الشباب الذين يتحدثون ويسألونه دوماً عنهم؟...

بعدها سمع صوت القاطع ...كانت الكهرباء تحرق كل أمل له في الحياة، تحرق حياته وتفاصيل ذاكرته وآماله، كان يتمنى لو أن قلبه يتوقف

وتنتهي تلك المعاناة، ولكّن قلبه أبى، فقد كان موعوداً بمزيد من القهر.

دخل أحدهم من الباب وقال: هل انتهيت من التحقيق؟

فصل المحقق القاطع، ولكن الكهرباء كانت ما تزال تتغلغل في جسده.. وبعدها بدأت تنسل من أطرافه.. كان يريد أن ينام أو أن يفقد الوعي أو حتى أن يرمي رأسه على الأرض ...ولكن دلو ماء أخر كان كفيلاً أن يوقظه من جديد، "قف الأن ليس وقت النوم قف ...." كان المحقق يتحدث والسم يقطر مع كل حرف من حروفه كان يشتمه بأقبح الشتائم والمسبات...وتابع " لولا كرم سيادة الرئيس لكنت تركتك تتعفن هنا أيها الكلب" لم يعلم حينها ماذا يقصد المحقق ولكن قلبه أبى إلا أن يرقص فرحاً بتلك الكلمات الغير مفهومة لعقله الذي مازال يعاني من صدمات الكهرباء. أمسك يده وبدأ يبصمه على أوراق كثيرة..

قال المحقق بعدها: استعد الان ستخرج للمحاكمة.. وأقسم أنك إذا تحدثت عن أي شيء حدث هنا سأجدك أينما كنت وسأجعلك تلعن ما تبقى من حياتك ...أحفظ درسك جيداً أنت معتقل هنا منذ شهرين فقط ...لم يضربك أحد ...لم يؤذك أحد...دخلت هنا لأنك شاركت بأعمال تخريبية إرهابية في البلد وأنت نادم...احفظ درسك جيداً تسلم ولا ترجع إلينا..

رد كمال بصوت مليء بالذل القهر: أمرك سيدي نحنا تحت أمرك..
لم يعلم كمال حينها ما الذي ينتظره بعد، ولكن الأفكار كانت تأتي وتذهب في عقله ...إحدى تلك الأفكار كانت تتركز بأن نهايته قد حانت وأنهم سيأخذونه إلى المحكمة حتى يأخذوا بيدهم صك إعدامه وانهاء حياته ...ثم تقاطعه فكرة أخرى بأنهم لو كانوا يريدون قتله لما احتاجوا لأي محاكمة، فكم من شخص انتهت حياته بلحظة داخل تلك الزنزانات ولم يحتاج لأي صك موت أو غيره.
ثم قاطع صوت الباب صوت أفكاره دخل شخص أخر وقال: هل انتهيت من التحقيق يا سيدي؟؟
رد عليه المحقق: نعم خذه من أمامي. والتفت إلى كمال وقال له: كما قلت لك احفظ درسك تسلم.
ساقوه إلى خارج المبنى ثم إلى سيارة كبيرة، استطاع أن يرى من تحت الغطاء أقدام أشخاص أخرين كثر معه بعضهم كان يرتدي بقايا حذاء، وبعضهم حافي القدمين. كان هناك صوت أنات تصدر من بعضهم ولكن لم يجرء أحد منهم ان ينبس بأي حرف ...
لم تمر فترة طويلة حتى تحركت السيارة وكان الصمت سائداً يتخلله صوت الآهات بين الحين والأخر.

كان في قلب كل واحد منهم ألف سؤال وسؤال ولكن لم يجرؤ أحدهم أن ينطق.. كانت رائحة الكهرباء قوية جداً وكأنهم جميعاً صعقوا بنفس الكبل وذاقوا من نفس جرة الألم قبل أن يغادروا ذلك المكان..

كانت الأفكار ماتزال تتسارع في عقل كمال عن مصيره وعن المكان الذي يذهب إليه، كانت جميعها مقبولة بالنسبة له إلا أن يعود إلى ذلك المكان أو حتى إلى أي مكان يشبهه فيقضي به ما تبقى من عمره.. كان يرى أن موته بأي طريقة هو الخيار الأفضل إذا ما قورن بعودته إلى ذلك العذاب، أما فكرة خروجه إلى عائلته كانت تأتي وتطوف حوله لثواني تغمر قلبه برعشه وتهرب مرة أخرى عند سماعه إحدى الآهات المتصاعدة من ركاب العربة.

وأخيراً توقفت السيارة وفتح الباب.. وقف رجل وقال: إنزعوا الغطاء عن أعينكم وقفوا بالدور، كانت تلك المرة الأولى منذ وقت طويل يسمح له أن يرفع الغطاء عن عينيه وهو خارج زنزانته ويرى أناس حقيقين ليسوا بخيال وأحلام.

سرق نظرة سريعة الى السيارة والأشخاص الذي كانوا يركبون معه.. ألمته تلك الوجوه البائسة التي كانت ترافقه طول الطريق كانت مليئة بالآلام والذل والقهر، وكأن هناك ألف حكاية وحكاية مزروعة في تضاريس وجوههم، كبلوهم بالسلاسل وساقوهم إلى سجن جديد،

ولكنه كان هذه المرة كبيراً يصله ضوء الشمس من منور صغير عند السقف.

لم يكن وحيداً في زنزانته هذه المرة .... كان هناك الكثير من الرجال.. كانوا يجلسون ويتحدثون.. ويضحكون... لم يَر ذلك من قبل.. حتى أنه نسي متى أخر مرة رأى فيها أحدا يضحك..

نهض جميعهم ليستقبلوا الفوج الجديد الذي كان كمال أحدهم ...أجلسوهم وأحضروا لهم الماء والطعام ، كان كل شيء جديد على كمال حتى لون الماء وطعمه، إن خمس سنوات كفيله بأن تنسيه وغيره طعم الماء الحقيقي النظيف اللذيذ.

سألهم أحد الرجال هناك: هل حولوكم إلى المحكمة أيضاً؟؟

رد كمال: هكذا قال لي المحقق أخر مرة ولا أعلم ماذا سيحدث بعد ...

ضحك الرجل وقال له: الحمد الله على سلامتكم.. إن شاء الله خمسة عشرة يوم ستعرضون على المحكمة وتخرجون بعدها.

قاطعه كمال: نخرج كيف؟ وإلى أين؟ ألن يقتلونا ؟؟ألن يعدمونا؟؟

رد عليه رجل كبير في السن: لو كانوا يريدون قتلك لقتلوك في المكان الذي كنت به ولم ينتظروا حتى تأتي إلى هنا صدر عفو عام ويبدو أنه شملكم أيضاً...أكثر من الحمد والشكر لله يا بني.. إن شاء الله ستعود إلى أهلك بخير قريباً.

لم يصدق أن هذا اليوم قد أتى حقاً وأنه سيخرج رغم أنه كثيراً ما كان يتخيل تلك اللحظة التي سيعود وينسى فيها كل ما مر به خلال السنوات الخمس، بدأ شعور بالبرودة يتسلل إلى جسده ويجعل كل جسده يرتعش.. كانت أول مرة منذ زمن بعيد يرتعش فيها من الفرح، فقد ارتعش خلال تلك السنوات من كل شيء من البرد والقهر والذل من المرض والكهرباء التي كانوا يصعقونه بها ...

حمله الرجال ووضعوه على بقايا بطانيات كانت موجودة في السجن وغطوه ولكنه استمر بالارتعاش الى أن غفا وهو يحلم باللحظة التي سيحتضن طفلتيه وزوجته وينام تحت أقدام والديه.

مكث في ذلك السجن خمس عشر يوماً، كانوا يذهبون إلى المحكمة ويستمع القاضي إلى إفاداتهم ويعودون، كان الانتظار قاتل وكانت هذه الخمسة عشرة يوماً أطول من السنوات الخمس التي قضاها وحيداً ع الرغم من انه لم يكن وحيدا هنا ولكن كانت الأيام تمر ببطء شديد..

وأخيرا أطلقوا سراح كمال وبعض الرجال معه، كان سعيداً جداً ويبصم على أوراق خروجه وكأنه طفل مولود يضع أول بصماته في الحياة.

خرج حافي القدمين، تغطيه بعض الملابس المتسخة ,ولكنه كان يشعر بأنه ملك قد ولي على الكون بأسره, كان ينظر إلى الطرق التي اختلفت

كثيراً عما كانت عليه قبل أن يتم اعتقاله على أحد الحواجز حتى أنه لم يعد يتذكر جيداً أسماءها ولا كيف سيذهب منها إلى منزله, بدأ يسير قليلاً حتى وجد رجلاً خمسينياً جالس بباب محل قريب من المحكمة وسأله عن اسم المنطقة التي هو فيها وكيف سيصل إلى أسرته ,أشفق عليه الرجل كثير وقال له :أستذهب إلى عائلتك بهذا المنظر ,تعال يا بني لنجد لك ما تلبسه وتحلق ذقنك وتغسل وجهك ,لم يمانع كمال أبداً فهو لم يكن يرغب بأن يخيف ابنتيه بذلك الشكل الذي خرج به .اصطحبه إلى حلاق مجاور وطلب من الحلاق أن يهتم بكمال حتى يعود , غاب ذلك الرجل نصف ساعة و جلب معه ملابس وحذاء كان يبدو أنها مستعملة، كان كمال قد حلق شعره وذقنه وغسل وجهه ..

ارتدى كمال ملابسه ووقف أمام المرآة، لم يعرف للحظة من هذا الرجل الواقف أمامه فهو ليس ذلك الرجل الذي دخل الى السجن وليس حتى ذلك الرجل الذي خرج منه، قاطع الرجل أفكاره وقال :توكل على الله ستذهب الآن الى أسرتك دعني أوصلك بنفسي.

ركب كمال مع الرجل وأعطاه كمال العنوان والذي حاول أن يحفره في روحه حتى لا ينساه أبداً طوال تلك الفترة .وهما في الطريق قال كمال للرجل :لماذا أنت لطيف هكذا معي ,سكت الرجل قليلاً وقال له:

أتعرف هذه الملابس لمن؟؟ إنها لولدي إنه معتقل منذ سنة ولا أعرف عنه شيئاً , لعلي اذا ساعدتك يجد ولدي من يساعده .

قال كمال: أتمنى من الله أن يجمعك به قريباً. صمت كمال وهو يفكر بكلام ذلك الرجل كان يتذكر أوليك الذين اختفت أصواتهم في الزنزانات، أو ذلك الرجل الذي كان مقتولاً ومرمياً في غرفة التعذيب أليس لهم عائلات تنتظرهم أيضاً؟؟؟!

كانت الأفكار تتلاعب بعقله حتى أنه لم يشعر أنه قد وصل إلى باب منزله، شكر الرجل كثير ودعاه للدخول والتعرف على عائلته ولكنه أصر أن يذهب..

وقف كمال أمام مدخل البناية كان يشعر بأن الفرح يحمله لا قدماه صار يركض ويقفز على الدرجات، وصل إلى الباب وبدأ يطرق الباب بقوة ويقول وينادي: هذا أنا يا حنان...افتحي أنا كمال يا حنان ...

فتح الباب وخرج رجل غريب لم يعرفه، كان ضخماً يرتدي البيجامة، شعر كمال بصدمة شديدة وقال له: أين حنان ومن أنت.

رد عليه الرجل بانزعاج: من حنان؟ ومن أنت؟ وماذا تريد منا؟

ولكن كمال لم يكن يسمع ما كان يقوله الرجل وحاول اقتحام البيت، منعه ذلك الرجل ودفعه إلى الخارج تعالت أصواتهم كثيراً وخرج الجيران فتعرف عليه أحدهم، كان مصدوماً من رؤية كمال، كان ينظر إليه وكأنه شبح قال له: أهلا يا كمال أهلا بك يا جاري الغالي

الحمد لله على سلامتك لا أصدق أنك ما زلت على قد الحياة، كان كمال مازال يعاني من صدمته.

تابع الجار: تفضل يا جاري تفضل إلينا.. لا تقلق زوجتك قد تركت البيت ورحلت لتسكن مع عائلتك.. تفضل لأخبرك ماذا حدث في غيابك.

دخل كمال إلى منزل جاره وألف سؤال وسؤال يجول في رأسه، ماذا حدث لهم، لماذا تركوا المنزل، أين هم يا ترى؟؟

نظر إلى جاره الذي لم يستطع إخفاء الدهشة أبدا، وقال له: أخبرني أرجوك ماذا حدث؟.

رد الجار ووقد أطرق رأسه :لا أعلم ماذا أقول لك يا كمال، حين اختفيت ولم يعلم أحد، لم تترك زوجتك ولا والديك مكان إلا وبحثوا فيه عنك أي جدوى.

وفي يوم من الأيام استيقظنا جميعاً على أصوات خلع أبواب وتكسير، خرجنا لنرى ماذا يحدث وإذا بحوالي ثلاثين عنصر من الأمن قد داهموا منزلك لم يتركوا فيه أي شيء، ولولا لطف الله أن تكون زوجتك في ذلك اليوم في منزل والديك لكانوا قتلوها أو أخذوها معهم، سألوا عنك وعنها وأخبرناهم بأننا لا نعرف أي شيء أبدا.

قاطعه كمال: ماذا تقول لماذا يفعلون ذلك فأنا كنت عندهم؟!..

رد عليه الجار: وهل يريدون سبباً حتى يهدمونا ويهدموا حياتنا، وهل يحتاجون إذناً ليغتصبوا أرواحنا وحرماتنا يا كمال؟.

خيم الصمت لدقائق وكأن الساعة قد توقفت والزمن وكل شيء إلا عقل كمال الذي كان سينفجر بأي لحظة.

قاطع صوت طرق باب الغرفة ذلك الصمت القاتل، نهض الجار وفتح الباب وعاد ومعه صينية مليئة بالطعام أدخلها وقال: تفضل كلّ الآن وسنتابع حديثنا.

ولكن كيف لكمال الذي أصبح عاجزاً عن التنفس أن يأكل قبل أن يعرف ما حدث لزوجته حنان وطفلتيه.

قال كمال: أرجوك تابع أرجوك.

ابتسم الجار وتابع: نعم نسيت أن أخبرك بعد غيابك بعدة أيام كانت زوجتي عند زوجتك وفجأة سمعت صوت صراخ قادم من منزلكم، كان قد أغمي عليها، أحضرنا الطبيب الذي أخبرنا بأنها

حامل منذ شهرين وقد رزقك الله بطفل كالقمر أسمته زوجتك كمال على اسمك.

صرخ كمال: طفل.. زوجتي...كمال ...؟؟!!

كيف لعقله أن يتحمل ذلك كله وقد كانت خلال خمس السنوات يتألم لأن ابنتيه الصغيرتان يكبران بعيداً عنه لم يكن يعلم بأن لديه أيضاً طفل صغير ولد ولم يراه، فرح للحظة أن هناك مخلوق أخر وجد في

هذه الحياة من صلبه وهو الذي كان يكافح كل يوم ليعيش يوماً أخر بعد.

قال كمال: ماذا حدث بعد ذلك أخبرني أرجوك.

رد جاره وقد عادت لمحة الحزن لعينيه: تعبت زوجتك كثيراً في غيابك يا كمال، اضطرت أن تبيع المنزل وتسكن مع أسرتك حتى تدفع المال للمحامين الذين كانوا يعدونها بأنهم سيجدوك ويخرجوك من ذلك السجن ...بقيت على هذه الحال سنة ونصف، كانت زوجتي تتكلم معها باستمرار وبعدها قطعت كل أخبارها عنا ولا نعرف ماذا حدث معها.

كمال لم يستطع أن يحبس دمعته أكثر من ذلك ...كان يبكي بحرقه شديدة من القهر.. حتى أن صوت بكائه كان أعلى من صوت الجامع المجاور الذي صدح صوته بالأذان: الله أكبر الله أكبر ....

هدأ كمال أخيراً وطلب الإذن من الجار ليذهب إلى منزل أسرته.. مد الجار يده إلى جيبه وأخرج بعض المال دسه في جيب كمال وقال له خذها سيساعدك هذا المبلغ لتصل إلى عائلتك وسامحني لتقصيري...

أخذ كمال المال وهو خجل من جاره، شكره وخرج يهيم على وجهه.. وكأن دنياه الواسعة أصبحت أضيق من ذلك السجن الذي قضى به السنوات الخمس...

ركب كمال سيارة أجرة وأعطى صاحبها عنوان منزل والديه. كان كمال ينظر من نافذة السيارة إلى تلك المدينة التي كانت من أجمل

مدن العالم على الأقل بنظره هو.. كانت حزينة متألمة تصيح من شده الألم.. كان يسمع صوت أناتها وكأنها تتعذب و تحتضر وكأن روحه كانت تحتضر معها أيضاً.

أخيراً وصل الى منزل عائلته.. طرق الباب كثيراً ولكن لم يجبه أحد، طرق باب أحد الجيران الذين كان يعرفهم.. ليسألهم إذا كان يعرف أحدهم أي شيء عن أهله، ولكنه لم يجدهم.. فسأل سكان المنزل الجدد الذين أخبروه بأنهم مقيمون في المنزل منذ سنتين ولا يعلمون أي شيء ...

خرج كمال الى الشارع وقد ضاق صدره...ليبحث عن أي أحد يجيب عن أسئلته التي تكاد تلتهم عقله.

وجد محل الخضار الذي في الحارة لم يتغير، أسرع إليه وهو يحيك في رأسه عشرات القصص قد تكون حدثت في غيابه ...

دخل المحل ووجد صاحب محل الخضار أبا محمد، كان يجلس كعادته منذ خمس سنوات مع بعض التغييرات كالخطوط الكثيرة التي خططت وجهه وشعره الذي أصبح أبيض إلا بعض شعرات سوداوات بقين صامدات رغم الزمن.

قال أبو محمد محمد: تفضل، بماذا أستطيع أن أخدمك؟

كان كمال مازال يتأمل أبا محمد الذي أعاد السؤال مرة أخرى: تفضل يا أبني بماذا أخدمك؟

رد عليه كمال: أنا كمال.. ألا تذكرني يا عم أبو أحمد أنا كمال الذي كنت أسكن هنا في ذلك البيت الذي في الزاوية.

نظر أبو محمد إلى كمال.. كان ينظر إليه ويدقق بتفاصيل وجهه ...ثم صاح: نعم هذا أنت أقسم أنك أنت كمال.

واحتضنه وهو يقول: الحمد الله أنك بخير، الحمد الله على سلامتك يا بني.

أجاب كمال: سلمك الله يا عم أبو محمد أخبرني أرجوك ماذا حدث لعائلتي أين يمكن أن أجدهم؟؟ ذهبت للمنزل ولم أجد أحداً هناك وفجأة تغيرت ملامح أبو محمد وصمت قليلاً وبدا وكأنه لا يريد التحدث..

قال لكمال: ارتح الآن وسأخبرك بكل شيء، تعال معي إلى منزلي لترتاح قليلاً فالحكاية تطول ...ونظر إلى الصبي الذي يعمل عنده: اهتم بالدكان سأذهب إلى المنزل.

ذهب كمال وأبو محمد إلى منزل أبي محمد، كانت السعادة واضحة جدا على وجهه لرؤية كمال حيّاً يرزق...

قال أبو محمد لكمال: سأخبر أم محمد لتحضر لنا العشاء وأعود..

ولكن كمال لم يعد يستطيع الانتظار.. تمسك بيد أبو محمد وقال: ارجوك يا عم أبو محمد أخبرني ماذا حدث أرجوك يكاد دماغي يتفجر وأصاب بالجنون أرجوك أخبرني.

اطرق أبو محمد رأسه في الأرض وقال: لا أعرف ماذا أقول لك ولكن يجب عليك أولا أن تكون قوياً وصبوراً ومؤمناً بقضاء الله وقدره.
قاطعه كمال: أخبرني يا عم أبو احمد أرجوك.
تابع أبو محمد: لا أعرف ماذا أقول لك فمنذ اختفيت وأهلك وزوجتك لم يتركوا مكاناً أو أحداً إلا وسألوه عنك دون أي فائدة، باعت زوجتك ووالدك كل ما يملكون لم يتركوا أي شيء الا بيت العائلة. كان يأتيهم كل فتره خبر عنك ويدفعون المال مقابل أي معلومة عنك او أي امل بمساعدتك ...ولكن بعد سنة ونصف من اختفائك ....
صمت أبو أحمد قليلاً وقد بدا وكأن الحزن قد أكل لسانه، نظر إلى كمال الذي لم يعد يستطع أن يتحكم بدموعه التي أغرقت وجهه..
تابع أبو محمد وهو يحاول ألا ينظر إلى عيني كمال: في يوم من الأيام سمعنا صوت انفجار أسرعنا جميعا إلى الصوت كانت والدتك واختك تحضران الطعام في المطبخ حين ضربت قذيفة هاون مطبخكم ...
ماذا تقول " قاطعه كمال "ماذا تقول يا أبو محمد ماذا تقول وماذا حدث أخبرني؟؟
تابع أبو محمد: أمك استشهدت فوراً واختك بقيت في المستشفى عدة أيام ،ثم توفاها الله ....

تعالى صوت بكاء كمال الذي نزل عند ركبتي أبو محمد يقبل يديه: ارجوك يا عم أبو محمد ارجوك أخبرني الحقيقة أخبرني بأن ما تقوله ليس صحيحاً أخبرني بأن ما قلته ليس صحيحاً!

قال أبو محمد: لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اهدأ يا بني اهدأ أرجوك اهدأ....

قال كمال: وأبي وزوجتي وأطفالي هل حدث لهم مكروه؟؟

رد أبو محمد: والدك كان منهاراً جداً في تلك الفترة ولكن أمله بعودتك كان يصبر قلبه حتى سمعنا بذلك الخبر المشؤوم..

قال كمال: أي خبر عم أبو محمد عن ماذا تتحدث؟؟

رد أبو محمد: جاءت الأخبار بأنك قد استشهدت تحت التعذيب.. ووالدك لم يتحمل ذلك الخبر أصابته الجلطة ودخل المستشفى.. وزوجتك حنان لم تتركه أبدا كانت تبيت معه في المستشفى هي وثلاث أطفال ...كان وضعهم مؤلماً يا بني لقد عانوا كثيراً في غيابك ...

كمال المسكين.. الذي كان يحدث الجدران في السجن عن عائلته الجميلة ...عائلته التي كانت سبب تمسكه بالحياة طوال السنوات الخمس ...لم يكن يعلم ماذا يحدث معهم وكم الألم والمعاناة التي كانوا يعيشونها ...كان يذوب مع كلمات أبو محمد كالشمعة المشتعلة ... "تابع يا أبا محمد تابع وأخبرني ماذا حدث ..."نطق كمال بهذه الكلمات بصعوبة شديده..

قال أبو محمد: حين كان والدك بالمستشفى أوصى حنان أن تأخذ باقي المال الذي كان معهم وتأخذ الأولاد وتذهب الى أوروبا كما كان كل الناس يفعلون لقد كان خائفاً عليهم كثيراً وخصوصاً أنت تعلم أن حنان لم يكن لها في هذه الدنيا سواك مع عائلتك.

صرخ كمال: أوروبا ؟؟حنان ذهبت إلى أوروبا؟؟؟ أخذت الأولاد وذهبت ؟؟لكن كيف؟؟ أهذا سهل جداً حتى تذهب هكذا ومعها ثلاث أطفال؟!!

حاول أبو محمد أن يجعل كمال يهدأ: يا بني لقد داهموا منزلكم عدة مرات وحنان للطف الله لم تكن موجودة، كانوا يريدونها هي والأولاد ولم يعرف أحد السبب، لذلك خاف والدك عليهم بعد أن جاء خبر استشهادك وطلب منهم الهرب والنجاة بأرواحهم ...

"وأبي ماذا حدث معه ؟؟ قال كمال

قال أبو محمد: لم يمض سوى أسبوع بعد ذهابهم كان والدك قد انتقل الى رحمة الله.. رحمه الله ورحم اختك ووالدتك...

أصبحت كل هذه الأخبار تتلاطم في دماغه وأحشائه كأمواج البحر الهائج، لم يعلم ماذا كان عليه أن يفعل، كان كل ما سمِع قد أحرق جسده وروحه وأصبح يصيح من شدة الألم ...وخلال دقائق كان قد أغشي عليه وفقد وعيه تماماً....

نقله أبو محمد إلى المستشفى ومكث هناك قرابة الشهر.. كان يصحو ويعود فيفقد وعيه من جديد ...كان دائماً ينادي بأسماء أفراد أسرته ولا يجد له مجيباً ...

بعد مرور عدة أسابيع استعاد كمال وعيه قليلاً وبدأ يفكر كيف سيجد حنان والأطفال، حاول التواصل مع كل شخص عرفوه يوماً كان يشعر بأنها ضاعت منه وبأنه لن يجدها أبداً ...لم يكن أحد يعلم أين هي أو ماذا حل بها أو حتى إلى أي بلد أوروبي ذهبت ليسافر إليها ...كان يتابع الأخبار دائماً، ويجن جنونه حين يسمع بتلك المراكب التي تغرق وهي في طريقها إلى أوروبا ويصبح راكبوها طعاماً للقروش كل يوم .... لم يترك أحد إلا تكلم معه وسأله عنها.. لم يترك شيء إلا وفعله ولكن دون أي جدوى..

استقر كمال في منزل والديه.. لم يكن يخرج كثيراً من المنزل، كان يحن عليه بعض الجيران ويحضرون له الطعام بين الحين والأخر ويطمئنوا عليه ...

مر عام كامل.. لم تصل إلى كمال أي أخبار عن زوجته وأطفاله ...

كان يشعر بأن ذلك السجن الضيق الذي قضه به السنوات الخمس أوسع وأكبر بكثير من سجنه الجديد الذي وجد نفسه فيه فجأة..

كان هناك يحلم ولكن الآن حتى الأحلام أصبحت محرمة عليه...فعائلته التي ناضل للحياة من أجلها خلال الخمس سنوات كانت قد انهارت في غيابه..

أصبح كمال الآن سجين ماضي مر حزين وسجين منزل كبير معتم يكلم جدرانه مرة وسقفه مرة والأرض مرة أخرى ...ينتظر أي أمل يعيده للحياة من جديد ...ويجمعه بحنان والأطفال .....

☆☆☆☆☆

# اسألوا شجرة الليمون

ليس مهم أبداً أن أخبركم من أكون.. فهذا غير ضروري في قصتنا هذه. أنها قصة حب وألم تبدو كقصص العشق الأسطورية التي سمعناها...كنت أظن أن زمن روميو وجولييت، قيس وليلى وغيرهم كثير قد أنتهى .... ولكن ما حدث كان أشد ألم حتى من كل تلك الحكايات التي سمعتموها سابقاً.... وكنت مجرد شاهدة على أحداثها وتفاصيلها وليتني لم أكن كذلك ...كل سكين انغرست بينهما انغرست في قلبي وتركت فيه جرح لا يبرى ولا يُنسى....

كنت صغيرة ولم يتجاوز عمري ال **10** أعوام، حين كنا مدعوين لحضور حفل زفاف لأحد أقرباء أبي، حينها تعرفت على فتاة بمثل عمري ساحرة الجمال، وجهها أبيض كالثلج، شعرها طويل أشقر وكأنه غزل من الذهب، وعيناها قطرتا عسل فاخر، لها ابتسامة خلابة لا تفارق وجهها أبداً، كان اسمها نهى.

كانت تتحدث عني لجميع أصدقائها وعائلتها، لم تفارقني أبداً ذلك اليوم، ليس فقط ذلك اليوم بل في كل مناسبة يدعونا لها أقارب أبي، حتى أننا صرنا ننتظر تلك المناسبات حتى نلتقي ونجلس ونتكلم ونضحك معاً.

مضت أربع سنوات وكانت لقاءاتنا جميلة ومتفرقة، وفي إحدى المناسبات التي كنا مدعوين لها، قالت لي نهى: أريد أن أخبرك بسري، هل تستطيعين حفظه؟؟

قلت لها: طبعاً لا تقلقلي سرك في بئر عميق.

قالت وقد تحول وجهها للون الأحمر: أنا أحب منذر.. فكرت كثيراً قبل أن أقول لك ولكنني لن أستطيع أن أخفي عنك أكثر....

أجبتها والصدمة قد ظهرت على وجهي: من منذر؟

قالت: أخوك منذر!! أنسيتي أسم أخوكِ!

فانفجرت ضاحكة وقلت لها: أحقاً تقولين تحبين منذر أخي؟؟

حين نظرتُ إليها شعرت أني قد أحرجتها.. ولكنني حقاً لم أقصد ذلك إنها المفاجأة فقط، لم أكن أتوقع ذلك أبداً. أخي منذر أكبر مني بثلاث أعوام كنا أصدقاء نبوح لبعضنا بأدق التفاصيل التي تزعجنا وتفرحنا، شاب لطيف حنون ولكنه شقي أيضاً.

قالت لي: هل غضبتي مني؟؟

قلت لها: ماذا تقولين أنت؟ ولماذا أغضب؟!! إنك كالقمر محظوظ هو من حظي بقلبك عزيزتي ولكنني تفاجأت فقط.

قالت: أرجوك لا تخبري أحد ولا حتى منذر أرجوك...

وفعلا لم أخبره بذلك، كنا أطفال ولم أكن أعي ما قالت اعتقدت أنه شعور طفولي ساذج كذلك الذي يصيبنا حين يبتسم في وجهنا ذلك

الطالب المتفوق الجميل في المدرسة. وبدأت بدوري أتكلم أمام منذر عنها، وألقي ببعض التعليقات المبطنة هنا وهناك حتى أرى رأيه بها.

كان لي أنا ومنذر عادة جميلة، حيث كنا نجلس دائماً تحت شجرة الليمون خلف منزلنا.. كانت شجرة بغاية الجمال دائمة الخضرة تتذوق من ثمارها ألذ حبات ليمون في حياتك، ونخفي بين أغصانها أنا ومنذر أسرارنا وحكاياتنا التي لا نستطيع بوحها لأحد، كان يطرق نافذة غرفتي ثلاث نقرات صغيرة ويقول لي: ألا تريدين أن أقطف لك حبة ليمون لذيذة؟؟!! فأرد عليه فوراً: نعم طبعا أريد.. وأقفز فرحة إليه نأكل الليمون الحامض مع الملح ونضحك ونتكلم ونقضي أجمل الأوقات ...

و بعد عدة أشهر كانت المفاجئة الجميلة حين ذهبنا لزيارة خالتي في منزلها الجديد وكانت نهى ووالدتها هناك، كانوا يسكنون في المنزل المقابل لمنزل خالتي، هذا يعني أننا سنلتقي معهم كثيراً وسنراها كلما ذهبنا لزيارة خالتي..

لاحظت ذلك اليوم أن منذر لم يحرك عينيه عن نهى ...أما هي فقد أصبح وجهها كحبة شمندر حمراء من الخجل ولم تنطق بأي كلمة.

طلبت والدة نهى منها أن تذهب للمنزل لتحضر منه شيء ما، طلبنا إذن من والدتي وذهبنا معاً.. وما أن خرجنا حتى سألتني فوراً: هل

أخبرت منذر بشيء إنه لا يتوقف عن النظر إلي.. أجبتها: أقسم لم أخبره بأي شيء أبدا أقسم ...

قالت: إذا لماذا ينظر إلي هكذا، لقد أخجلتني نظراته جداً.

قلت لها: لا أعلم ما به ولكن لا تقلقي سأكلمه اليوم وأخبرك إن كان يعلم شيء.

تبادلنا يومها أرقام هواتف بعضنا حتى يسهل علينا أن التواصل ...

وحين وصلنا إلى المنزل، كان منذر مستعجلا أكثر مني.. سمعت صوت النقرات على نافذة غرفتي.. فتحت وإذا بمنذر يقول لي: ألا تردين أن اقطف لك حبة ليمون لذيذة... أجبته: طبعا أني قادمة ...

أسرعت إليه كان جالساً تحت الشجرة يمسك عصى بيده ويكتب اسم نهى على الأرض وهو يبتسم.. أحسست يومها أن هناك شيء تغير في منذر ...

سألني فوراً: عن ماذا تحدثت أنت ونهى حين ذهبتما إلى منزلها..

أجبته: لا شيء محدد، هل هناك شيء كان علينا أن نتحدث به برأيك؟

قال لي: إن صديقتك جميلة جداً، فيها شيء غريب يسلب الفكر والقلب.. أجبته :وهي قالت عنك ذلك أيضاً..

قاطعني: حقاً قالت ذلك ؟؟وماذا قالت بعد أخبريني..

أجبته: أنت أخبرني أولاً، ماذا غير أنها جميلة جدا..

نظر إلى شجرة الليمون الكبيرة صمت قليلا ثم قال: لا أعلم حقا ولكني لأول مرة اسمع صوت دقات قلبي قوية جداً...شعرت أنني أصبحت ضعيفا جداً حين رأيت عينيها وحمرة الخجل على وجنتيها، وكأن الورد الجوري قد نثرها عليهما وهرب ...في لحظة واحدة أصبحت إنسان أخر ...

وفعلا كانت أول مرة أرى منذر في تلك الحالة، وهو الذي كانت الفتيات الجميلات ينتظرن منه بضع نظرات فقط، كان يتحدث عنها وكأنه يعزف مقطوعة موسيقية خلابة وكأنها خلقت بين يديه وله هو فقط...

سألته: هل هذا هو الحب يا منذر.. يبدو أنك وقعت أخيرا في شباك الهوى يا أخي ....

نظر إلي وابتسم وقال: لا أعلم ولكنني أشعر أنني أريد أن أحيا وأموت معها ولأجلها ...هذا فقط ما أريده ...

شعرت تلك اللحظة ببرودة تتسلل إلى أطرافي.. "أموت معها " ما هذه الكلمات أيعقل أن يحدث له ذلك من لقاء واحد فقط، أيجعله لقاء واحد متيماً لدرجة أن يرغب بالموت معها ولأجلها ...

ذهبت إلى غرفتي أفكر بكلمات منذر، لم يكن ما يجمعني مع منذر رابطة الدم فقد كنا أروع الأصدقاء كنت أعرفه جيدا ولكنه بعد

ذلك اليوم قد تغير كثيراً كان دائم الشرود أصبح سارحاً هائماً متبسماً بدون أي سبب.

وأخيرا قررت أن أحادث نهى وأخبرها عن حال منذر، طلبت رقمها.. رد أحد أخوتها فطبتها منه..

أنا: السلام عليكم.. كيف حالك يا نهى؟ هل عرفتني؟

نهى: طبعا طبعا.. انا بخير. كنت أنتظر اتصالك منذ ذلك اليوم.

أنا: كنت أنتظر الفرصة لأكلمك، هل يوجد أحد ما حولك؟ أريد أن أخبرك بشيء ما؟

نهى: دقيقة سأذهب إلى غرفتي..

بعد قليل.. نهى: حسناً أنا لوحدي الآن أخبريني ماذا هناك؟

أنا: أتعلمين منذ ذلك اليوم الذي التقينا بك في منزل خالتي ومنذر لم يعد منذر الذي نعرفه يا نهى..

نهى: ماذا هناك هل أصابه شيء؟

أنا: أنه عاشق يا نهى..

نهى: عاشق؟؟ ومن هي تلك المحظوظة؟

أنا: ألا تعلمين حقا؟ لقد سرقت قلبه وعقله في لحظة واحدة فقط، إن كنت تظنين أنك تحبيه! فهو يعشقك يا نهى..

صمتت نهى قليلاً ثم تابعت: وأنا أيضاً.. أنت تعلمين كم أحبه.. ومنذ متى وأنا أحبه ...أنه حب حياتي.. لقد حفرت اسمه في تجاويف روحي ...

كنت استمع لها وكلي دهشة فهي فتاة في الخامسة عشر من عمرها فقط كانت صغيرة بالنسبة لكل الكلمات التي قالتها ولكنه العشق وما أدرانا ما هو العشق ...

خطر ببالي تلك اللحظة خاطر مجنون وسألتها: ما رأيك لو تتحدثين معه الآن؟؟

قالت: كيف؟؟

قلت لها: أناديه وتسلمي عليه ... لا تقلقي أنها مرة فقط ليسعد قلبكما..

صمتت قليلاً ثم قالت: حسناً ولكن لمرة واحدة فقط..

ذهبت مسرعة إلى منذر الذي أصبحت شجرة الليمون مكانه الذي يهرع إليه كل فرصة تتاح له.. ناديته: منذر تعال هناك من يريدك على الهاتف، قال لي: قولي لهم أني نائم، قلت: هل أنت متأكد؟؟

نظر إلي: وقال من يريدني؟

قلت له: تعال بنفسك لترى...

جاء مسرعاً وكأنه قلبه أخبره أن نهى من تنتظره على الهاتف..

منذر: ألو ...

نهى: اهلا منذر ...كيف حالك؟؟

منذر وقد أحمر وجهه خجلاً واعتقد أنها المرة الأولى التي أرى وجهه يحمر فيها خجلا مع ابتسامة عريضة جدا ولمعة غريبة في عينيه جعلتهما كنجمتين مشعتين.. قال: أهلا أهلا ...ما أجملها مفاجأة ...أنا بخير جداً يا نهى.. كيف حالك أنت؟؟

ردت نهى وهي تضحك: شكراً لك ...أنا بخير والحمد الله ...غارقة في التحضير للامتحانات وأنت هل استعديت جيدا لامتحاناتك؟؟

منذر: الحمد لله كل شيء ممتاز وتحت السيطرة..

نهى: أنا سعيدة لأنني سمعت صوتك ...اهتم بنفسك وبدراستك جيداً...

منذر: أنا أسعد صدقيني.. وأنت أيضاً اهتمي بنفسك ...لا إلٰه إلا الله..

نهى: محمد رسول الله ...السلام عليكم ...

كانت محادثة قصيرة جداً وكلماتها بسيطة ولكنها فتحت باباً جديداً في حياتهما.. منذ ذلك اليوم منذر لم يعد يمشي على الأرض فهو عائم فوقها طوال الوقت ...لم تفارق الابتسامة وجهه ابدا ...

منذر ذلك الشاب الشقي.. لم يكن يوماً محباً للدراسة والمدرسة ولكنه الآن أصبح لا يفارق الكتاب ...صحيح أن الامتحانات كانت على الأبواب ولكنه كان يبذل كامل جهده لينجح بها ويجتاز امتحان الثالث الثانوي ...

مضى شهرين وانتهت الامتحانات ولاحظ الجميع التغيرات التي طرأت على منذر حتى أنا نفسي في الحقيقة كنت متفاجئة مما حدث معه ... ومنذ ذلك الوقت وأصبح منزل خالتي هو المكان الذي نجد منذر فيه كلما اختفى...خصوصا أن زوجها كان مسافراً وهي كانت تقيم مع أطفالها...

في يوم من الأيام قال منذر لخالتي: تعالي لنحتسي فنجان القهوة في الشرفة. وحين خرجا لم تفارق عينيه باب منزل نهى ينتظر صدفة تجعلها تخرج ويراها....وهذا ما حدث حقاً خرجت نهى رأها وهي أيضا رأته ... وقفا ينظران إلى بعضهما ويبتسمان حتى لاحظت خالتي وكل من في الشارع نظراتهم.. في الحقيقة هي لم تكن مجرد نظرات كانت حكايات ترويها عيناهما وتغزلان قصص وقصص..

منذ ذلك اليوم حب نهى ومنذر لم يعد مخفيا على أحد وبدأ يشيع الخبر في كل مكان في قريتنا الصغيرة... والكل رحب وبارك هذا الحب ...حتى أن أمي ذهبت إلى منزلهم وقالت لأم نهى: نهى ست البنات أتمنى أن تصبح كنة لي ... ابتسمت أمها يومها وقالت: ومن أحسن منكم لنعطيه نهى يا أم منذر الغالية ...

صار منذر كل يوم يمر من أمام منزل نهى ويسابق الجميع إلى منزل خالتي عندما تطلب أي طلب...

أخبر منذر أبي بأنه لا يرغب أن يكمل دراسته في الجامعة وأنه يريد أن ينهي خدمة العسكرية ويساعده في أعماله، في تلك الاثناء تكون نهى أنهت المرحلة الثانوية ويخطبها وتتابع بعدها دراستها الجامعية إن رغبت وهي متزوجة .... بارك والدي رغبة منذر وشجعه عليها.... ذهب منذر للخدمة العسكرية وأنا كنت في تلك الفترة صلة الوصل الوحيدة بينهما ...ويسرع إلى منزل خالتي ليرى نهى في كل إجازة وفرصة له.

***

مضى عامان على ذهاب منذر للخدمة العسكرية، ولم يتبقَ له إلا عدة أشهر وينهي خدمته ويعود وتتم خطبته هو ونهى..، وكنا أنا وهي في الصف الثالث الثانوي ندرس بجد واجتهاد.

وفي أخر إجازة لمنذر خرج مع أصدقائه ليقضوا وقت ممتع.. رنَّ الهاتف، رد والدي عليه، قال: نعم، أنا والد منذر من معي ...

سكت أبي وأصبح لون وجهه أحمر وكأن الدم قد بدأ يقطر منه وبدى وكأنه سمع خبر مزعج ...أغلق الهاتف وخرج مسرعاً دون أن يتحدث إلى أحد.

كنا ننتظر أنا وأمي عودته أو عودة منذر بفارغ الصبر حين رن الهاتف، كانت خالتي المتصلة قالت لي: هل عاد منذر كيف حاله أخبريني؟؟

أجبتها: ماذا جرى لمنذر أنه ليس في المنزل ولا حتى أبي.. ما حدث يا خالتي أخبرينا؟؟

كانت أمي قد انهارت من البكاء ولم تنتظر حتى أن تكمل خالتي كلامها..

قالت خالتي: حدثت مشكلة بين منذر وبعض الشباب وسمعت أنهم ضربوا بعضهم البعض ...

قلت لها: من هؤلاء الشباب وماذا حصل؟؟

قالت: أولاد عم نهى ...لا نعرف الكثير كنت أريد أن اطمئن على منذر أذا عاد أخبريني أرجوك..

أحسست أن سكين قد انغرست في قلبي ...يا ترى ما الذي حدث؟؟ أيكون كل ذلك بسبب ما بين منذر ونهى؟؟؟

عاد أبي ومعه منذر أخيراً، كان منذر مصاباً بجروح ورضوض كان يتألم كثيراً، ولكن لم تكن جروحه هي التي تألمه، فقد علم في تلك اللحظة أنه علاقته مع نهى أصبحت بعد الآن شبه مستحيلة ...

أبناء عمومة نهى شباب أشقياء جداً، يفتعلون المشاكل مع كل الناس، ولسوء حظ نهى ومنذر كانوا ضحيتهم هذه المرة ...

أنهى منذر إجازته وذهب ليقضي أخر ست أشهر له في الخدمة العسكرية، قال لي انه لن يعود قبل إنهاء الخدمة لعل الجميع ينسى ما حدث ويتجدد الامل بخطبته من نهى ...

لم أستطيع أن أحادث نهى تلك الفترة أبدا ولكن خالتي كانت صلة بيننا.. وبعد مرور شهر زارتنا خالتي وكانت حزينة جداً ولا عجب، فحين أخبرتنا بما يحزنها حزنا وبكينا وحتى شجرة الليمون بكت معنا ... قالت إن ابن عم نهى الذي افتعل المشكلة مع منذر قد تقدم لخطبتها رغم معرفتهم الجيدة بأن منذر يريدها وأنه أمي قد تحدثت مع أمها.. ولكنه وجدها طريقة لينتقم من منذر.. وفي بلدة كبلدتنا كانت مازالت تعاني من العادات والتقاليد البالية التي تجعل الفتاة من حق ابن عمها، إن رغب بها هو فلن يتزوجها غيره ....

كانت نهى تعاني كثيرا في تلك الفترة ...حتى أنني رأيتها يوماً ما ولم أتعرف عليها بسهولة، كان وجهها الأبيض أصفر شاحب وتحت عينيتها أسود وقد فقدت الكثير من الوزن ...وحين رأتني كانت تبكي بحرقة ...وكانت هذه السكين الثانية التي انغرست في قلبي وفي حبهما.. لم نعلم ماذا كنا سنقول لمنذر، أمي لم تجف دمعتها منذ علمت بما حدث وأنا لم أستطع فعل شيء كنت عاجزة كالمكبلة بالسلاسل..

وجاء ذلك اليوم أخيراً.. يوم المواجهة مع منذر ...أنهى خدمته العسكرية وجاء إلى المنزل ...وأول عمل قام به أن نزل عند أقدام أبي

يتوسل إليه أن يسمح له إلى يذهب إلى والد نهى ويتوسل أن يسامحه، مع أن الجميع يعلم بأنه لم يكن مذنب فيما حدث، حتى أنه كان مستعد للذهاب إلى أولاد عمها والاعتذار منهم. قال لأبي: أريدها بأي ثمن لن أتخلى عنها أرجوك إسمح لي ...!!

أنا وأمي أمام ذلك المشهد قد انهرنا من البكاء، لم نستطع أن نلجم دموعنا، ماذا كنا سنقول له، كيف نخبره بما حصل ...

قال أبي وقد غرقت عينيه بالدموع: نهى خطبت يا منذر وستتزوج من ابن عمها قاسم..

قال منذر: من قاسم؟؟ هل ذاك قاسم الذي تعاركت معه؟؟

قال أبي: نعم هو بذاته.. أنها قسمتها يا منذر .... ولعل الله يبعث لك بمن هي أفضل من نهى ...

سقط منذر مغشياً عليه حين سمع ذلك الخبر ...أخبرنا الطبيب إنه أصيب بانهيار عصبي حاد... بقي منذر على تلك الحالة أسبوع كامل.. كان يتناول الطعام بصعوبة شديدة.. كان يذوب أمامنا كالشمعة.. حتى أن أمي ذهب إلى منزل نهى ترجوهم أن يغيروا رأيهم في الموضوع.. ولكن والد نهى كان مصراً على رأيه..

وفي أحد الأيام رن هاتف المنزل: كانت نهى المتصلة، كانت تريد أن تطمأن على منذر ...قلت لها: أنه متعب جداً يا نهى ...

قالت وهي تبكي: وأنا أيضا قلبي يتمزق لا أستطيع تحمل ذلك الألم أنني أحترق..

قلت لها: لماذا لم تخبري قاسم أنك لا تحبينه وتحبين منذر..

قالت: أخبرته.. أتعلمين ماذا قال؟؟ قال لي ولذلك خطبتك لأحرق قلبه.

قلت لها: أنه مريض حقا؟؟كان الله في عونك يا نهى ...لا أعلم ماذا أقول لك.

صمتنا قليلا ثم قالت لي: أهتمي به من أجلي أرجوك و لا تخبريه أنني اتصلت سأكلمك أنا كلما سمحت الفرصة لأتطمأن عليه...

بعد عدة أسابيع بدأ منذر يستعيد عافيته وصار يرافق أبي إلى العمل ولكنه لم يكن منذر الذي نعرفه جميعاً كان يعمل فترات طويلة ولا يعود إلى المنزل إلا لينام أو يأكل...

وفي إحدى الأيام جاء أبي فرحاً مبتسماً وهو يقول لمنذر: أخيراً وجدت علاجاً لحالك يا بني ...وجدت لك عروساً كالبدر ...جميلة جداً وعائلتها محترمة جداً...أنها ابنه شريكي أبو أحمد تعرفه جيداً...

قلنا جميعا لأبي: يتزوج!!! شعرت بغضب شديد من أبي في تلك اللحظة ...كيف لا يشعر بمنذر وهو يتعذب..

ولكن جواب منذر كان المفاجأة لي فقد قال: نعم حسنا يا أبي أنني موافق...

كانت صدمتنا كبيرة، فهو لم يناقش أو يفكر حتى ...قلت له: لنذهب إلى شجرة الليمون ونتحدث قبل أن تعطي رأيك ولكنه رفض ذلك وقال: لقد اتخذت قراري سأتزوج، ما فائدة الانتظار، إن كانت هي أو غيرها فما الفائدة في النهاية ليست نهى..

وفعلاً هذا ما حدث لم يمض الكثير حتى تزوج منذر ودلال ابنه شريك والدي، دلال فتاة صغيرها عمرها **16** عام لم تتابع دراستها، جميلة جدا وبريئة ونقية كالقطن الأبيض في أجراسه. كانت تحب منذر كثيراً، رغم أنه كان من الواضح جداً أنه لم يتحرر من ماضيه ولكن دلال كانت تبذل كل جهدها ليحبها وينسى نهى.. وكان مرور اسم نهى أمامها يحولها لعاصفة هوجاء..بينما كانت نهى في تلك الفترة مازالت مخطوبة لابن عمها.

دخلت أنا ونهى الجامعة وصرنا معا كل يوم تقريباً.. كنت أحاول ألا أذكرها في المنزل أو أذكر أمامها أي شيء عن منذر ودلال التي كانت تنتظر طفلتها الاولى...

وفي أحد الأيام سمعنا أن قاسم خطيب نهى قد قتل شاب أثناء إحدى المشاكل التي كان يفتعلها دائما...كانت هذه الحجة مناسبة لإنهاء خطوبتها معه وخصوصا أنه تم الحكم عليه بالسجن مدى الحياة ...

كانت سعادتها كبيرة بأنها تخلصت من ذلك الوحش الذي افترس قلبها وحبها لم تستطع إخفائها عن أحد أبدا.. رغم أنها كانت تعلم أن منذر لن يكون لها ولكنها اعتبرت ما حدث لقاسم هو انتقام لها على ما فعله بهما ...

على عكس ما حدث مع دلال.. فقد اشتعلت نيران الغيرة والخوف في قلب دلال حين سمعت أن نهى أصبحت حرة، كانت تلك الأفكار تلتهم عقلها رغم محاولاتي أنا ومنذر أن نطمئنها دون جدوى، كانت تقول إنه يحبها ولم تخرج من قلبه و سيتزوجها، أنني متأكدة أنه سيتزوجها..

وزاد ذلك حين وضعت طفلتها الصغيرة، كانت كالقمر بيضاء كالثلج لها شعر أسود كالليل، كان موضوع اسمها الشاغل لدى العائلة كلها فقد أصر منذر أن يسميها نهى ...ولكن كيف تستطيع دلال أن تسمح بذلك ...حدثت مشاكل كثيرة بينهما ولكن في النهاية قد استسلمت دلال فقد قال لها منذر: أني أحبك أنت الآن وأنت زوجتي وأم طفلتي.. أقسم أني لا أفكر بالزواج أبداً ولكنني قد نذرت منذ زمن إن رزقني الله بفتاة أن اسميها نهى وهذا كل ما أريده منك..

وافقت دلال أن تسميها نهى ولكن كلمات منذر لم تخفف نارها فقد أصبحت تغار حتى من ابنتها إذا اقترب منها منذر أو حضنها أو قبلها...

بينما نهى فقد أصابتها نوبة ضحك هستيرية انتهت بنوبة بكاء شديدة..

سألتها يوماً: أتقبلين أن تكوني زوجة ثانية لمنذر إن طلب يدك؟؟

قالت: لا.. لن أقوم بذلك أبداً ولم أفكر فيه حتى ...دلال لا تستحق ذلك مكتوب على جبينها اسمه.. إنها تعشقه..

***

مرت ثلاث سنوات توفي فيها والد نهى وأنجبت دلال طفلة ثانية أسمتها لمى ، وتزوجتُ أنا ..ولا تريدون أن تعرفوا ماذا حدث في حفل زفافي فقد كانت أول مرة تلتقي فيها نهى ودلال ...كانتا كالنار والبنزين ذلك اليوم.. كنت خائفة أن يتصادما فنشتعل جميعاً...

ولكن لله الحمد لم يحدث ذلك....

تابعنا دراستنا في الجامعة وتزوج أغلب أصدقائنا ولكن نهى كانت ترفض كل من يتقدم لخطبتها وحين سألتها قالت: لا أفكر بالموضوع الآن يجب أن أنهي جامعتي أولا، كانت تلك الحجة الدائمة التي تخبر بها الناس جميعاً.

وفي أخر سنة لنا في الجامعة، اشتعلت شرارة المظاهرات في مدينتنا، و أصبحت في كل مكان.. وكان الخوف متربص في الأركان وخلف كل الجدران.. صرنا حديثاً لكل العالم أينما نذهب نسمع بالدولة.. قانون

الطوارئ.. حرية ...ومسميات أخرى لم أسمع بها قبلا.. وكل جمعة يخرج الرجال والشباب للمظاهرات ...الاعتقالات كانت عشوائية.. وأعداد الشهداء كانت تزداد كل جمعة، مما جعل بعض الشباب يحملون السلاح لحماية القرية.

كان أبي يحاول أن يمنع منذر من المشاركة في المظاهرات وفعلا هذا ما حدث فهو لم يشارك في أي مظاهرة بل حمل السلاح مع من حملوا ليحمي المدينة والمتظاهرين، وبقينا على تلك الحال كثيراً...

***

أنهينا السنة الجامعية الأخيرة أنا ونهى بصعوبة وخوف شديد، وكان الوضع الإنساني يزداد سوء والقصف العشوائي والمداهمات والاعتقالات التي غالباً ما كانت تنتهي إما بعودة المعتقل ميتاً تحت التعذيب أو اختفائه، كل ذلك أدى إلى أن ينزح أهالي المدينة إلى الدول المجاورة خوفاً من خطر يحيط بهم.....

وكانت نهى وعائلتها من الذين غادروا المكان إلى إحدى الدول المجاورة، حيث بدأت نهى تعمل هناك بمساعدة اللاجئين الأخرين، كنا نتواصل دائم عبر الانترنت، نتحدث عن كل شيء، كانت تبدو عليها السعادة بمساعدة الأطفال هناك تتحدث دائماً عنهم وعن الأشياء الجميلة التي تقوم بها لمساعدتهم.

أما منذر فلم نعد نراه كثيراً في تلك الفترة، كان دائم التغيب عن المنزل، فقد كان مسؤولاً عن أعمال أبي بالإضافة إلى عمله كقائد ميداني.

مر عامان من الخوف والرعب الذي كنا نعيشه، اعتدنا على الموت والدمار والقصف والخوف، وأصبح اليوم الذي يمر علينا دون شهداء نودعهم هو أقصى أحلامنا، كان كل واحد منا مشروع شهيد.

في أحد الأيام ذهبت أنا وكل أفراد عائلتي المتبقين في المدينة لزيارة والدينا، كان الجو ربيعي جميل جداً.. فخرجنا لنشرب القهوة في الحديقة الامامية للمنزل وأولادنا يلعبون حولنا فرحين، كنا سعيدين جداً ولم نعلم ما ينتظرنا ...دخلت دلال إلى المنزل لتحضر طعام لابنتيها الصغيرتين، حين سمعنا صوت الصاروخ القادم باتجاه البلدة وكنا نسمع صوته قبل أن نراه.

قال منذر: أدخلوا جميعا الآن انتشرنا كخلية النحل نركض ونجمع أطفالنا لندخل المنزل، وفجأة زلزلت الأرض من تحت أقدامنا وسمعنا صوت انفجار الصاروخ كان قريباً جداً منا.. نعم لقد كان في الحديقة الخلفية للمنزل يبعد عن شجرة الليمون بعض الأمتار ...وسمعنا صوت نهى الصغيرة تصرخ من المطبخ، هرعنا جميعاً لنرى ما الذي حدث، كان مشهد مؤلماً جداً، هز أرواحنا وجلجلها كانت دلال مستلقية على الأرض غارقة بدمائها.. وكان صوت نهى ولمى يحرق

الروح.. رغم أننا جميعا في الخارج ولكن ذلك الصاروخ اللعين أبى ألا أن يرسل لها بشظية لعينة تخترق جدار المطبخ وتستقر في جوف دلال ...أختارها ليطفئ روحها ونور عينيها...

كانت الصدمة عظيمة علينا وعلى منذر الذي حملها بين يده وخرج يركض حافي القدمين مغطاً بدماء دلال يبكي في الشارع ويصرخ محاولاً الوصول إلى المستشفى ولكن ما الفائدة فروحها قد فارقت جسدها منذ أن اخترقت تلك اللعينة جوفها ... أما نهى ولمى فقد كانتا تبكيان بحرقة شديدة لم تهدئا أبدا.. نهى تبكي: ماما ماما ماتت.. ماما أريد ماما "

جميعنا بكينا دلال الجميلة التي لم تكمل عامها العشرين بعد، دفنها منذر بيديه وأبكي كل من حضر تشييعها ...كان يدفن قطعة من روحه معها...

عاد إلى ابنتيه وحضنهما بشدة وبكى معهما .... في الحقيقة لم يخطر في بالي أبداً أن منذر أحب دلال لتلك الدرجة...ولكنه حقا أحبها ...وأخلص لها...

***

مرت ستة شهور كانت صعبة جداً بعد تلك الحادثة.. استعاد منذر فيها عافيته واستطاع أن يهدأ من روع ابنتيه ...ومنذ ذلك اليوم لم

يتأخر عن المنزل كثيراً ولم ينم بعيداً عنهما إلا نادراً جداً كان حريصاً أن يكون معهما حين تناما وحين تفتحا عينيهما، كما قد كان يحكي لهما كل يوم عن والدتهما وعن جمالها وطيبتها وحبها لهما...

وفي يوم كنت أزور والدي، جاء منذر وقال لي: ألا تريدين أن أقطف لك ليمونة كبيرة من شجرة الليمون وغمز لي..

ضحكت وقلت له: طبعا أريد.. أحسست بداخلي أن الموضوع بخصوص نهى ، فنحن لم نجلس معاً تحتها منذ تلك الأيام .

حين رأيته جالس تحت الشجرة، تذكرت ذلك اليوم الذي أخبرني أنه يحبها فقد كان يجلس نفس الجلسة ويمسك بيده عصى ويكتب اسمها على التراب ...قلت له : هنيئاً لها..

قال: أتعتقدين أنها مازالت تحبني؟

قلت: لا أعلم ربما ..هل تريد أن أسألها؟؟

قال: لقد وعدت دلال ألا أتزوج ...ولكنها ذهبت وتركتني مع الطفلتين، أنت تعلمين أنني كل يوم أخرج وأضع روحي بكفي وأخاف على نهى ولمى ووالدانا أصبحا عجوزين وحيدان بعد أن تزوج أخوتنا ورحلوا وأعلم حقاً أنني لن أجد أفضل منها أم للطفلتين ...

نظرت إليه وأنا أبتسم ابتسامة ماكرة: هذا يعني أنك لم تعد تحبها وأنك تريدها فقط من أجل بناتك ...كم أنت أناني يا منذر ...

نظر إلي نظرة مليئة بالحزن وقال: وهل تعتقدين أني نسيتها يوماً، نعم أحببت دلال وأخلصت لها ولكن ليس هناك شيء كحب نهى ويشهد الله على ما أقول لم أخن دلال يوماً.. ولا حتى بالأفكار..

فقلت ممازحة: لنرى إن كانت نهى تحبك كما تحبها ....

أنني أعلم أن نهى لم تنسه أبداً.. أتذكر يوم كلمتني بعد استشهاد دلال كانت تبكي كثيراً وقالت: مسكين منذر والفتاتان سيعانون كثيراً ربط الله على قلوبهم.. في الحقيقة تساءلت في نفسي قبل اتصالها بفترة: هل يعقل أن تكون نهى قد فرحت لما حل بدلال.. ولكن دموعها ذلك اليوم أطفأت كل تلك التساؤلات الحمقاء.. كانت حزينة حقاً ...كما أن نهى ليست من ذلك النوع أبداً ...

وفي الحقيقة لم أستطع الصبر كثيراً فقد أسرعت إلى هاتفي لاتصل بنهى ...

أنا: السلام عليكم، كيف حالك يا نهى؟

نهى: وعليكم السلام، الحمد لله مشتاقة لك كثيرا.. كيف حالك انت؟

أنا: الحمد لله بخير. ألن تعودي يا نهى؟

نهى: أعود ؟؟لماذا أعود؟؟

أنا: هناك من ينتظر عودتك؟؟

صمتت نهى وبدى أنها بدأت تبكي ثم قالت: حقاً؟؟ هل يريد أن أعود؟ .

أنا: منذر ينتظرك يا نهى.. أنت تعلمين أنه لم ينسك يوماً؟

نهى: أعلم ذلك جيداً فقلبي الذي يسكن في صدره أخبرني بذلك..

أنا: ولكن الوضع تغير الآن أنت تعلمين أن هناك طفلتين.. أنهما يتيمتا الأم ويحتاجان أم، هل ستكونين أم لهما؟

نهى: أنهما قطعتان من منذر كيف لا أعشقهما ...كيف أرفضهما؟؟ ليقدرني الله أن أعوضهما عما فقداه..

أنا: أخبري أمك وأخواتك وأخبريني برأيهم..

نهى: لا تقلقي هم يعلمون أني لم أنساه أبداً ..

أنا :حسناً أنتظر منك أن تخبرينا بالتطورات لأخبر منذر وعائلتي ..

شعرت أنها كانت تنتظر اتصالي بفارغ الصبر.. لا أعلم أم أن قلبها أحس بمنذر ...يال سحر هذا الحب الذي بينهما.. شعرت أن كل شيء بدأ يصبح أفضل فقد عانينا جميعاً بعد رحيل دلال..

وبعد مرور عدة أسابيع عادت نهى مع عائلتها وبدأوا بتحضيرات الزفاف...لا أخفيكم لم نكن قد شفينا من غياب دلال بعد، وكنا نحاول أن نخفي دموعنا وحزننا حتى لا يشعر به منذر أو نهى، كنت أتخيل أن دلال ستدخل علينا في أي لحظة غاضبة تلعننا جميعاً...كنت أتمنى أن تفعل ذلك فهو أهون علينا من فقدانها...

نهى الصغيرة ولمى كانتا فرحتين أيضاً. اشترت لهما نهى فستانين بغاية الجمال حتى أنها أصرت أن تنتظر بفستانها الأبيض هي ومنذر مع الفتاتين حتى تناما وحتى لا تعتقدا أنها ستأخذ والدهما..

كنت أراهما دائماً يغزلان أجمل أيام عمرهما معاً ...كانا سمفونية حب خالدة ...كنت أقول في نفسي أخيراً هناك نهايات سعيدة في حياتنا المليئة بالألم.. أخيراً هناك قصة نقول في نهايتها: يتزوج الحبيبان ويعيشان بسعادة وفرح وينجبان الكثير من الأولاد الذين يشبهونهما ...

النهاية

ولكنها لم تكن هذه النهاية للأسف ...

مضت خمس سنوات ولم ينقص رونق حب نهى ومنذر أبداً بل كان يزيد اشتعالاً مع كل يوم يمر ...

منذر أخي العاشق كان سعيداً جداً في حياته مع نهى ...بدأ في العمل مكان والدي الذي أصبح غير قادر على العمل بالإضافة لعمله كقائد ميداني لإحدى المجموعات المشهود لها في أخلاقها وبطولاتها...

نهى العاشقة.. نعم إنها صديقتي منذ زمن طويل جداٍولكنني كنت أتعرف عليها من جديد.. أنها أعظم مما تخيلت ...كانت نبيلة ورقيقة جداً...

كما وقد كانت أم رائعة لنهى ولمى وأربع أطفال أنجبتهم من منذر خلال خمس سنوات ...كان يقول لها دائماً أريد منك عشرين طفل يشبهونك في كل شيء.... كما قد كانت ابنةً رائعة لوالدي تهتم بهما وتخاف عليهما في غيابي أنا وأخواتي.. كان منزلهم مليئ بالحب والسعادة ولا يمكن أن تدخل إليه إلا وتشعر بالفرح وكأنه معلق في سقف البيت يعطر كل الحاضرين ...وكم كنت أتمنى أن تكون هذه النهاية.. ولكن لا للأسف لم تكن أيضاً...

في يوم من الأيام خرج منذر صباحاً كالعادة ...
وسمعنا أن هناك اشتباكات في إحدى القرى المجاورة لنا بين شباب المدينة و أفراد عصابات كانوا ينون الدخول إليها واستباحتها ...كان ذلك طبيعياً في حياتنا الاعتيادية...ولكن فجأة امتلأت الشوارع بالناس، الكل يتحدث عن وجود شهداء ...خرجت إلى الشارع لأعرف أي خبر عن أسماء الشهداء ...كان هناك جماعة يقفون أمام منزلي ويقولون..: كان بطلاً ...حمى أصدقائه ...كان الله في عون والديه أنهما عجوزين ...
حين رأيت زوجي قادم مسرعاً باتجاهي وعيناه مليئتان بالدموع شعرت أن قلبي اشتعل نار، وبدأت أرتجف، قلت له: ماذا هناك ماذا حدث.. من الذي استشهد؟..
قال لي: اصعدي إلى السيارة سنذهب..
قلت له: إلى أين ؟؟هل حدث شيء لمنذر أخبرني..
قال: منذر استشهد ....
كانت صدمة عظيمة لي .. لم أستطع استيعاب الموقف كنت أصرخ كالمجنونة: أنت تكذب ...أنت تكذب ...منذر حي أنت تكذب جميعكم يكذب...
وصلنا إلى منزل والدي.. نعم لقد كان الخبر صحيحاً ...منذر قد استشهد.. لم يعد موجوداً بيننا ...دخلت مسرعة إلى أمي وأبي، كان

المسكينين يبكيان كالأطفال ونهى أيضاً تحتضن الأطفال الستة وتبكي وتصرخ: منذر...منذر.... لماذا فعلت بنا هكذا.. لمن تركتنا يا منذر.... حين رأتني ركضت إلي بدأت تهزني وتقول: أسمعتي ما يقولون؟ يقولون منذر استشهد، كيف فعل ذلك بي، لقد عاهدني أنه لن يتركني أبداً...ولكنه رحل وتركني ...

كان الجميع يبكي أقاربنا.. جيراننا...حتى أنه كان هناك أناس لم أرهم في حياتي ...كان الجميع في منزلنا يبكي ويحاول أن يجعلنا نهدئ ولكن هيهات...

نهى الصغيرة ولمى ...كانتا تبكيان بشكل هستري.. لم تبكيا والدهما فقط بل بكيتا أمهما.. وبكيتا نفسهما ...كثير ما مر بهما كثير ...كمية القهر في قلوبهما وعيونهما غير قابلة للوصف...كانت نهى تحضنهما أكثر حتى من أولادها ...كانت تبكيهما وتبكي أطفالها ونفسها .....

ثم سمعنا أصوات آتية من الشارع.. لا إله إلا الله.. والشهيد حبيب الله ...أحضروا منذر محمولاً كالعريس لتودعه عائلته ...

يا نار قلبي كيف ستخمدين بعد الآن...منذر الفارس البطل ترجل مبكراً عن خيله ...منذر يا أخي وصديقي كيف تركتنا ...تركت والديك وأنت عكاز زمانهما.. تركت نهى حبيبتك لوحدها مع أطفالها الستة عاجزة وحيدة ومكسورة...

وشجرة الليمون يا منذر مع من سأجلس هناك وأحكي له عن وجعي الذي سببه رحيلك يا منذر ...
تلك الرصاصة التي أصابت رأسك قد أصابت قلبي وفجرته ولم يبقى له أي أثر يا منذر...

أصبحت نهى اليوم وحيدة.. تربي أطفالها الستة.. نعم فهي ترفض حتى أن يقول أحد ما بأن نهى ولمى ليستا ابنتيها.. تعتني بهما جيداً، كما تعتني بوالديّ الكهلين، نذهب إليها دائماً ونحاول أن نقدم المساعدة ولكنها لا تترك لنا أي مجال..
قلت لها ذات مرة: حملك ثقيل جداً يا نهى دعينا نساعدك...
قالت لي: كل واحد في هذا المنزل هو قطعة من منذر.. أبواه ...أبنائنا ...كيف يكون شيء من منذر حمل ثقيل...كيف؟؟
نهى الآن تضرب أروع الأمثلة في الوفاء والإخلاص ... كآلاف النساء من بلادي...شامخة وصابرة ...
ولكنها مازالت عاشقة .... فحين تغيب نهى وتختفي فالكل يعلم أنها تحت شجرة الليمون هناك تبكي و تبوح لها وتخبئ أسرارها وحكاياتها هناك بين أوراقها وأغصانها لعلها تصل إلى جذورها ثم إلى ذلك القبر

الذي نام فيه منذر فيسمع صدى صوتها وينهض ليخفف عليها آلام تلك الأشواق التي فتكت بها....

☆☆☆☆☆

# سأكون لك حتى النهاية

-1-

الأول من حزيران عام 2016 استيقظت وقد ضاق صدري ذلك اليوم بشكل لا يوصف ,وكأن كل الدنيا قد جثمت على خناقي فجأة .لم أستطع مغادرة سريري ،كنت أبكي كالمجنونة ،و رغم محاولات عائلتي لإخراجي من تلك الحالة ولكن للأسف كلها باءت بالفشل .

يوم ...اثنان ....ثلاث أيام لم أشتهي الطعام أو الشراب ..لم أرغب في أي شيء من دنياي سواك .

كنت أريد أن أحدثك أو أسمع صوتك أو أرى صورتك أو حتى أقرأ أي شيء مما كنت تكتبه لي...إنني أعلم حقاً إنك علاجي وشفائي من داءٍ أوجده غيابك يا ميلاد...

ولكن كبريائي هو ما يمنعني عنك ،لقد عاهدت نفسي أن أخرجك وأجتث حضورك من روحي التي طالما أعياها بعدك وخوفي عليك ..لقد كان ألم إبعادك أخف وطئ من ألم بعدك الذي كنت تعاقب قلبي به دائماً،كنت كالسرطان يا ميلاد دخلت روحي واستوطنتها، وأعلم أنك لن تخرج منها حتى لو فارقت هذه الروح جسدي.

-2-

أتذكر يوم لقائنا الأول ،كنت أستعد لمناقشة إحدى حلقات البحث والتي كانت بعنوان " دور الأباء في تربية الأبناء" ولحسن حظي أن تصبح أنت المسؤول عن فئتي ...

سحرت فيك يا ميلاد منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى المدرج .قلت في نفسي :لعله يصبح أباً لأبنائي...

مرت الأيام وكانت الصدف تأبى إلا أن تجمعنا معاً

في كل مكان وزمان ...

أتذكر ذلك اليوم الذي كنت أقرأ فيه رواية "ممو زين قصة حب نبتت في الأرض وأينعت في السماء "

كنت أقرئها بشغف شديد حتى أنني نسيت أني أجلس على أحد مقاعد الجامعة ورحت أغوص فيها وأحلم ...إلى أن قاطعتني وجلست بجانبي ،كانت هذه أول مرة تكون فيها قريباً مني إلى تلك الدرجة ،لقد استطعت أن أشتم رائحة عطرك الخلاب والتي إلى الآن وبعد كل هذه الأعوام لم أستطع أن أنتزعها من تجاويف روحي يا ميلاد..

قلت لي يومها:أتقرئين دائما؟؟

قلت لك :نعم ...دائما وأبدا...فالقراءة هي وسيلتي للتنقل بسرعة بين الأزمنة والأماكن والعصورالمختلفة تجعلني أعيش الف قصة وقصة وأنا في مكاني ...

قلت لي مع ابتسامة جميلة :إذن ليكن الله في عون ذلك الرجل المسكين الذي وقع في حبك ؟؟!

قاطعتك بدهشة :وقع في حبي ؟؟؟! لماذا تقول ذلك؟؟

أجبت :يقولون إحذر أن تحب أمرأة مثقفة تحب القراءة؟؟

أجبتك :ومن هم الذين يقولون ؟؟

قلت: لا أعلم ولكن يبدو أنهم قد وقعوا في ذلك المحظور لذلك قالوا ما قالوا...

أخذت بعدها الرواية من يدي وقلت :بعد أن تنهيها اسمحي لي أن أستعيرها منك لأعرف ماهي تلك الرواية التي جعلتك تجلسين هنا لأكثر من ساعة كالتمثال لا تحركين إلا عينيك بلهفة بين الصفحات تضحكين تارة وتتجهمين تارة أخرى..

جحظت عيني وقتها من الدهشة :أنا؟؟ ..يبدو أنك أنت من قضيت أكثر من ساعة كما تقول تتابعني وتترصدني ؟؟

رسمت ابتسامتك الخلابة وقتها وقلت:ما أدراك أني راقبتك وتابعتك لساعة فقط؟... حسناً أنهي الكتاب وأعطيني إياه...وداعاً .

نهضت وتركت بقايا عطرك في خياشيم روحي تركتني هائمة على وجهي أفكر بكلماتك وأبعادها.

لا أعرف كيف أنهيت الرواية في اليوم التالي وأعطيتك أياها ، كنت أريد أن أراك مرة أخرى وأحدثك..

كانت جميلة تلك الرواية.. جميلة ومؤلمة تشبهك....

نهضت من سريري وكأن الكهرباء قد صعقتني أبحث عن تلك الرواية فأشتم رائحتك بها، لعلها تخفف ذلك الألم الذي كان ينتشر في جسدي كالوباء ,لقد أحضرتها معي إلى هنا مع كل شيء لمسته يداك وعبقت به رائحتك...

مازالت كلماتك منثورة بين الصفحات هنا وهناك كما كتبتها ، وفي أخر صفحة كتبت رقم هاتفك وبريدك الالكتروني وتلك الجملة التي نفخت في داخلي الروح يومها ((أعدك إن قبلتي سأنتظرك حتى نهاية))

عن أي نهاية كنت تتحدث وقتها يا ميلاد.....

-3-

عدت إلى سريري وتقوقعت حول نفسي أذرف تلك الدموع التي تجمعت في عيني وباتت تحرقها ....

دخل أبي إلى غرفتي وقد أشفق على حالتي وقال: أخبريني ماذا تريدين ؟؟ أخبريني ما هو شفاءك وسأحضره لك يا بنتي مهما كلفني الأمر قولي أرجوك لا أتحمل خسارتك ؟؟؟

نظرت إليه وشعرت بالعجز. .ماذا أقول لك يا أبي ؟!! لقد خرجت من موطن من أجلك كان علي أن أختار بينك وبينه .ولكنني أخترتك أنت بل هو من أجبرني أن أختارك بعد أن وعدني أنه سيلحق بي ، أجبرني أن أختارك لأنجو بك و بأخواني...

وفجأة انفجرت بوجه أبي باكية: أعدني على بلادي أرجوك إن كنت تسأل عن شفائي ، فشفائي أن أعود.....

كانت صدمة أبي شديدة ارتسمت على ملامح وجهه المتعب ، قال لي :أأرسلك إلى الموت ؟؟ أأرسلك إلى نهايتك ؟!!إلى مدفنك ؟! ماذا تقولين ""

أجبته :أذاً اتركني أموت هنا ببطء ولا تحزن أو تفكر بي أبدا""

لا أعرف يا ميلاد كيف نطقت بكل تلك الكلمات الموجعة لأبي وأنا التي كانت تخجل من أن يرتفع صوتها في حضوره فقط ..أحسست أني

آلمته كثيراً هو في الأصل لم يشفى من ألمه وكسرته منذ أن خرجنا من وطننا نطلب الأمان الذي لم نجده فيها ...

تركني وخرج من الغرفة وعدت أنا أبكيك وأبكي موطني وأبكي نفسي وعائلتي ....

-4-

إنني عاجزة يا ميلاد، انتقل بين صورك ورسائلك التي كنت تكتبها لي، لعلها تخفف ألم حالتي تلك ...

أتذكر ذلك اليوم الذي تقدم أحدهم لخطبتي ولاق قبول عائلتي، ولكنني قد أقسمت ألا أتزوج غيرك أبداً. قلت لك وقتها دعنا نتزوج نكتب عقد الزواج فقط أنت هناك وأنا هنا ...لا أريد من دنياي إلا أن يصبح أسمي مقترناً اسمك. ولكنك قلت يومها: لن أقبل إلا أن يكون كل شيء بيننا مثالياً. قلت لي: بعد كل ذلك الصبر أتقبلين بأقل من ذلك يا حبيبتي "

كتبت لي يومها منشورا على الفيس بوك قلت فيه:

"أنني أريدك ولكن قد لا نلتقي قبل زمن طويل ...ولكثرة ما أريدك أفهم كم تريدينني ...

ولكن لابد أن نتعود الحرمان حتى عندما نكون معاً، لأن قدرنا ألا نكون معا دائماً...ولكنني أعدك بمتعة أجمل إلى حين اللقاء ...أتدرين قبلك لم يكن الحرمان شيء جميلاً ""

-5-

أتذكر يا ميلاد ذلك كاليوم الذي أخبرتني فيه أنك ستذهب للخدمة العسكرية؟، قلت يومها أنك تريد أن تنهي هذه العقبة التي تقف في أمام زواجنا. قلت لك أذهب ولكن بعد عام ونصف موعدنا، والموعد ليس ببعيد وسأنتظرك إن قبلت حتى النهاية "

كانت أول مرة تمسك فيها يدي، شعرت وقتها أنني ملكت الدنيا بما فيها يا ميلاد ...

ولكن ما حدث كان أكبر من دنياي تلك ، فقد انقلبت أحوال البلاد رأساً على عقب، اشتعلت الشوارع وانتشر الخوف والرعب في كل مكان ...وعلقت أنا وأنت في عام ونصف لا تنتهي ....

أربع أعوام بعد العام ونصف الذي اتفقنا عليه مضت ومازلت أنتظرك كما وعدتك وسأنتظرك حتى النهاية يا ميلاد"

## -6-

تباً لذلك اليوم الذي قلت لك فيه إما أنا وإما تلك الحرب اللعينة ...إما أن تترك كل شيء وتأتي إلى كما وعدتني أو أن تنسى من أكون..

قلت لك: إنها حربهم هم، ليس لنا بها أي شيء، لماذا يكتب علينا أن نخوض حرب ليست حربنا، نحن مجرد عاشقين لا نريد من دنيتنا إلا أن نكون معاً..

ضحكت وقتها وكم كرهت ضحكتك تلك، ما يزال صداها في أذني يعذبني، وقلت: أتعتقدين أننا العاشقين الأوحدين في هذه الدنيا؟! أو في هذه الحرب؟؟ كلا يا حبيبتي كلهم عاشقون وكلهم ينتظر أن يجتمع مع محبوبته أو عائلته، إذا خرجت الآن سيحمل هذا العار من بعدي كل شخص أرتبط بي يوما.. عائلتي أنتِ.. أطفالي ...لن أخون قسمي وعهدي بحماية هذا البلد.. أنتِ من علمني أنه لا حدود للحب والعشق والعطاء ....

مازالت كلماتك تحوم حولي كالطيف تريد قتلي يا ميلاد...

**-7-**

بدأ قلبي يغلي باسمك يا ميلاد ولكنني لن أكلمك ، لقد جرحني بعدك ، حتى أنك هذه المرة لم تحاول أن تجدني أبدا، لقد عاهدت نفسي أن لا أعود إليك .

لطالما عاملتني بأنانية شديدة ، لقد كنت تغيب عني أيام وأيام دون حتى أن تتعب نفسك بترك رسالة تطمأن فيها قلبي الملوع عليك ، ثم تعود بعدها تعتذر ....في كل مرة تعود وتعتذر !! ولكن ما نفع الاعتذار !! أتعلم يا ميلاد ماذا يحدث لي حين تختفي أنت فجأة ؟؟!! لا أعتقد أنك تعلم ولا أعتقد أنك قد جربت هذا الشعور قبلاً.. إنني أحتضر في كل مرة تختفي فيها ،تبدأ مخيلتي الحمقاء بنسج خيالات وحكايات وأحداث لأشياء فظيعة قد حدثت لك، لا أجرء حتى أن أجعلها تخرج من حدود تلك المخيلة الحمقاء ، ولكنني أعود بعدها لأسامحك أتعلم لماذا ؟؟ لأن فرحة امتلاكك من جديد أعظم عندي من أي ألم و دموع لم أعرفها قبلك ...

**-8-**

**ما هي نهاية قصتنا يا ميلاد أخبرني ...تجذبني إليك تحييني في جنتك وينتشي قلبي ، ثم تعود وتغيب عني ...**

**أتذكر ذلك اليوم الذي أرسلتك لك قصيدة كنت سأنجب منك قبيلة ؟؟ضحكت وقتها كثير وقلت :أن كانت تلك القبيلة تشبهك وجزء منك فإني أريدها ولكن إحذري فقد لا أكتفي منك بقبيلة واحدة ...**

**أتراك نسيت كل تلك الأحاديث الجميلة التي كانت بيننا لذلك لم تحاول هذه المرة أن تستعيدني مضى وقت طويل ألم تشتق إلي بعد ..أعدك أني سأرد عليك إن أتصلت بي أو إن أرسلت لي رسالة ألم يحن الوقت ؟؟! ألم يرق قلبك علي بعد ؟؟!!!**

**-9-**

لم أعد أستطيع احتمال ذلك الألم أكثر ...أصبح الوقت يزيد من خناقي سأكسر ذلك العهد اللعين وسأقبل بالقليل القليل منك، وهم امتلاكك أهون ألف مرة من أن أخسرك ...

قاطع أبي افكاري حين دخل إلى غرفتي وبيده ظرف أبيض كنت خجلة منه جداً من بعد أخر حديث دار بيننا ..

مد يده بالظرف لي وقال خذي هذا ، تعرفين أني أثق بك جدا..قد لا أكون أعرف سر حالتك تلك ولكنني لن أجبرك على البقاء هنا وأنت بتلك الحالة ولا أريد أن أخسرك مهما حدث ....

فتحت الظرف لأجد جواز سفري وبطاقة طائرة ومبلغ من المال ...لقد حجز لي والدي للعودة ...سأعود إليك أخيراً لم أصدق عيني ، نظرت إليه متفاجئة وقد بدأت السعادة ترفعني وتطيرني في كل أرجاء الغرفة .. ثم قال :إذهبي وأقيمي مع جدتك وجدك وخالتك هناك اهتمي بنفسك جيداً..

أحسست أن الحياة قد انبعثت في داخلي من جديد نهضت وقفزت في حضن أبي أبكي فرحا.... تلك السعادة لم أشعر بها يوما يا ميلاد أخيراً سأعود وسنلتقي ولن أبتعد عنك مرة أخرى أعدك بذلك ...

خرج أبي وأمسكت هاتفي بسرعة لأخبرك وأبشر قلبك بما بُشرتُ به ....

فتحت الفيس بوك ذهبت لقائمة الحظر أزلتك منها ويحاً لي كيف تجرأت وفعلتها يا ميلادي أتمنى ألا تكون غضباناً مني لذلك ولكنني متأكدة بأن فرحتك ستطغى على جريمتي تلك ...

فتحت صفحتك وكانت يداي ترتجفان بشدة كانت إشارة التحميل بطيئة جداً وكان صبري قليل جداً كانت صورتك ترياق الحياة لي وأخير ظهرت، لم تغير تلك الصورة بعد رغم أنني أخبرتك بأنني لا أحبها ترتدي فيها زيك العسكري وتمسك ببندقيتك بفخر ...أخشى عليك اعذرني يا ميلاد ...

أسحب الشاشة للاسفل وأنا أنظر إلى أصبعي وأتخيل خاتم خطبتك يزينه وتضحك روحي من مجرد التخيل يا ميلاد وفكيف عندما يحصل ذلك ....

وأخيراً أخر منشور لك ، بدأت الأرض تدور بسرعة هائلة لم أعد أسمع أي صوت سوى صوت دقات قلبي الذي أنهك فجأة ، تجمد جسدي وبدأت روحي تسحب منه رويداً رويداً ،أصبحت كتمثال بارد من دون أي روح ، إنها صورتك ولكن لم تكن أنت من شاركها , كان أخوك قصي نشرها وكتب عليها "" ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه""الرحمة لروحك يا شهيد... الرحمة لروحك يا ميلاد ....

رغم أني أنهيت دراستي الجامعية ولكن صدقني لقد أخذت تلك الكلمات مني وقتا طويلاً حتى أستطيع تهجأتها بشكل صحيح ، كنت أقرأ وكأنها أول مرة أقرأ فيها وكأني نسيت كل ماتعلمته يوما ...بدى لي يا حبيبي أنها أبجدية جديدة أو أنها طلاسم مكتوبة بالدم ...نعم أنه دمك يا ميلاد...

**1**/حزيران /**2016** هو تاريخ استشهادك ..منذ عشرة أيام ..لم أعلم حينها أني كنت أحتضر لأنك رحلت ...

إنهم يقولون أن لغماً لعيناً قد فتت جسدك ولكنهم لا يعلمون أنه فتت روحي أيضاً كلوح زجاج سقط من أعلى ناطحة سحاب ...

كيف سأصدق ما أرى ...كيف سأتابع حياة لست فيها؟! ، و مع من سأتقاسم ذرات الاوكسجين وقد قطعت أنفاسك؟! ...

لقد وعدتني أنك ستبقى معي حتى النهاية يا ميلاد ، هل حصلت النهاية وأنا لا أعلم أم أنك قد خنت عهدك معي يا حبيبي .؟!!

في كل مرة كنت تغيب كنت أتخيل هذه اللحظة ، كنت أجلس وأبكي وأرى حياتي تتبدد من بعدك ، ولكن الآن لم أستطع البكاء ، ودموعي التي كانت تنهمر في كل لحظة تغيب فيها الأن بدى وكأنها قد جفت تماماً

أيكون ما أسمع صحيحاً ؟!!أحقا رحلت حتى دون أن تودعني ؟!! ولكن كيف ترحل انت وأنا مازلت على قيد الحياة؟!!

إنه اسمك هنا مكتوب ..أنه أنت ...الجميع يقولون أنك قد بذلت روحك فداء لزملائك وأنقذت حياتهم .. ولكن قتلتني أنا ...

بحثت عن أخر شيء كتبته أنت في صفحتك لقد كان قبل استشهادك بساعة فقط كتبت : أأمعقول أن أشفى منها ؟؟!! أنها امرأة تسكن خياشيم ذاكرتي مخترقة مسامي...قدري أن أتعثر بعطرها أينما حللت """...

كلماتك أوجعتني يا ميلاد ..أعيتني وأنا التي كنت أبحث عن الدواء ..كنت أريد أن أخبرك أني سأعود إليك وأنت أخبرتني بأنك رحلت ولن تعود يوما يا ميلاد...

أغلقت هاتفي وضعت رأسي على وسادتي لعل ذلك الدوران الذي أصابني يهدأ قليلاً أغمضت عيني ، كنت أدعو أن لا أستطيع فتحمها مرة أخرى أو أن يكون كل ما حدث كابوس سينتهي في اللحظة التي أفتح فيها عيني مجدداً...فغفوت.

أستيقظت بعدها بقليل مفزوعة أمسكت هاتفي لأتأكد ان كل ذلك هو كابوس لعين وانتهى ...

ولكن لا ..لم يكن كابوساً أبداً ..كان حقيقة مؤلمة ..كنت تقول دائماً :أحبك بقدر حبي لهذا الوطن ...

ولكنك كنت تكذب فأنت تحب ذلك الوطن أكثر مني فرحلت من أجله ولم تقبل أن ترحل من أجلي....

## -10-

الآن قد مر أكثر من شهر على استشهادك وروحي لم تنطق إلا بكلمتين "ميلادي استشهد "" بينما لساني وكأنه قد ربط فقد ثقل ولم يعد يستطيع الكلام ...

أصبحت حديث الجميع هنا ...البعض يظن أنني قد فقد عقلي بتُ مجنونة ... والبعض يتحدثون عن سحر أو جن قد تلبسني ...

لم يبق شيخ ولا طبيب نفسي أو حتى مشعوذ لم يحضروه ليخرجني من تلك الحالة التي أدخلني فيها رحيلك بدون أي جدوى..

الكل يعلن عجزه أمام علتي يا ميلاد ولا يدرون أن شفائي الوحيد معك وأنت قد رحلت ....

تعيش روحي في دنيا لوحدها معك تتحدث معك وتبكيك ...أعرف جيداً أنك تسمعها وتتكلم معها أيضاً ...

أنني أنتظر ذلك اليوم الذي سأرحل فيه من هنا إليك.. فأنا لست مثلك أخلف بعهدي مثلما فعلت يا ميلاد ...وسأنتظرك إلى ما بعد النهاية وبعد الحياة وبعد الموت ...لتصبح قصتنا قصة حب نبتت في الأرض وكبرت وأينعت في السماء ""

☆☆☆☆☆

# حب تحت سندان الحرب

كنت أنتظر أن يسألهم أبي ولكن في الحقيقة هو لم يكن يفكر وقتها إلا بحياة الشاب المسكين وكيف ينقذه من الموت , نظر أبي إلينا وقال: هل أنتم مستعدون لتعلم شيء جديد لم تروه في الجامعة .

قال أحمد: نعم أنا جاهز.

وأجبت: وأنا أيضاً..

ولحسن الحظ أبي كان يجهز دائماً في سيارته حقيبة إسعافات صغيرة فيها كل ما قد يحتاج إليه ليقوم بعمليات بسيطة أو إسعافات بأي لحظة.

جهزنا الأغطية وعقمنا الأدوات لإخراج الرصاصات.

كان الشاب يتألم ويصرخ، وكان أحمد يساعد أبي وأنا بجانبهما أقدم شيء بسيط من المساعدة، كنت أنظر إلى أبي ويزداد إعجابي وحبي له أضعاف مضاعفة.. كان هادئاً وماهراً في نفس الوقت، في الحقيقة فعلاً كان درساً لم أتعلمه في الجامعة.

وبعد ساعتين ونصف من العمل المتواصل أخرج أبي رصاصتين من جسد الشاب وأعطاه مسكّن ودواء لينام ويرتاح ،وبعدها طلب منا تحضير شيء من الطعام للشاب الأخر.

جلسنا حوله ننتظر أن يحدثنا عما حدث معهم، نظر إلينا الشاب وقال: لا أعلم كيف أشكركم لقد أنقذتم حياتي وحياة أخي.

سأله أبي: ألن تخبرنا ماذا حدث الآن؟

رد الشاب: في الحقيقة لقد خرجنا لتشييع أحد الشهداء اليوم ...ليشهد الله أننا لم نؤذ أحد أبداً ،عندما خرجنا بعد الصلاة لتششيع أطلقوا علينا الرصاص الحي، حاولنا أن نتفرق ونهرب، ولكن أخي قد أصيب بالرصاص ولَم أعرف ماذا أفعل، ووجدت نفسي بباب بيتك وقد كنت أعلم من الناس عن أخلاقك ورحمتك. صمت أبي قليلاً وقال: أهلا بكم لا تقلقوا لن يعلم أحد بما حدث هنا. ونظر إلي وإلى أخي ليتأكد أن كلامه سينفذ.

في الحقيقة أنا لم أعلم عن ماذا كانوا يتحدثون، ولكن الفضول قد أصابني.

بقي الشاب المصاب في منزلنا يومين، كانت أمي ترعاه وكأنه أحد أبنائها حتى استعاد وعيه اتصل أبي بأخيه وجاء وأخذه من منزلنا.

ومنذ ذلك الوقت تابعنا الأخبار كل يوم ،وكنا نتحضر ونستعد لاستقبال المصابين كانت مشاهداتي لوالدي وأخي أفضل من محاضرات

الجامعة ودروس العملي.. كنت أراقبهم جيداً وأتعلم كل شيء وأساعدهم بكل شيء ...

مضت الأيام ونحن على هذه الحالة، لم أسمع أبي أو أمي يتذمرون يوماً، بل كانوا دائماً على استعداد لاستقبال المصابين.

حتى جاء ذلك اليوم المؤلم ...اتصلت أمي بي وقالت: لا تأتي إلى المنزل لعدة أيام أبقي عند اصدقائك.. سألتها: ماذا هناك أخبريني؟ ...

قالت: اسمعي ما أقول ولا تأتي حتى أتصل بك أنا...

كان صوتها مليء بالحزن والخوف والألم، حاولت الاتصال بها بعد ذلك وبوالدي وأخي دون جدوى لم يرد أحد منهم على اتصالاتي. أحسست بقلق شديد فقد حلَّ الليل ولا أعلم ماذا حدث مع عائلتي، كانت ليلة صعبة وطويلة لم أتمكن فيها من النوم أبداً، انتظرت شروق الشمس بفارغ الصبر وخرجت مسرعة إلى منزلي، وكانت تلك هي صدمتي الأولى حين دخلت إلى المنزل ولم أجد أي شيء في مكانه، كانت الدنيا مقلوبة رأساً على عقب ولم يكن أحد هناك.. أسرعت إلى جيراننا طرقت بابهم ...فأصابتهم الصدمة حين رأوني ولم يقبلوا حتى استقبالي في منزلهم طردوني وأنا التي لم تجمعني بهم يوماً إلا علاقة الحب والاحترام.. ولكني لم أكن أعلم ماذا ينتظرني بعد..

ذهبت لبيت جدي.. طرقت الباب كثيراً فتح جدي الباب.. أدخلني بسرعة وأجهش بالبكاء.. وحضنني بشدة.. سألته وقد كانت نار قلبي تشتعل: جدي ماذا هناك أخبرني؟؟ ماذا حدث أين أمي وأبي وأحمد ذهبت إلى المنزل ولم أجدهم.

قال لي: ادخلي إلى أمك أنها هناك مع جدتك ...حاولي أن تتماسكي أمامها يا ابنتي..

لم أفهم ماذا يقصد جدي بهذا الكلام.

دخلت مسرعة إليها ...لن أنسى تلك اللحظة ما حييت.. أمي تلبس الأسود عيناها منتفختان جدا ووجهها شاحب...

تحضنها جدتي وتبكيان معاً ...ركضت إليهما "ماذا هناك أخبروني ؟ماذا حدث؟! لماذا تبكيان ؟ ما الذي حدث أمي جدتي تكلما أرجوكما؟!!.

صرخت أمي بوجهي : لماذا أتيتي إلى هنا ألم أقل لك أن تبقي عند اصدقائك بالسكن.. لماذا أتيت إلى هنا قبل أن أخبرك؟؟..

أصبحت النار تأكل داخلي: أمي أرجوك ماذا حدث ...

حضنتني جدتي بقوة وقالت: إهدئي يا ابنتي إهدئي أنه أمر الله ولا اعتراض على حكمه...

كانوا يتكلون وكأنهم يخرجون الكلمات بالقطارة ولكن أعصابي لم تعد تتحمل صمتهم ودموعهم تلك فانفجرت باكية ....

وأخيراً قالت أمي: كان والدك في عيادته، وكنت أنا وأحمد في المنزل حين سمعنا طرق باب شديد، فتحتنا الباب وإذا بعدد هائل من الرجال دخلوا إلى المنزل خلال ثواني .... أمسكوا بأحمد وبدأوا بضربه ...حاولت أن أقترب منه ولكنهم ضربوني وأوقعوني أرضاً .... كسروا كل شيء في المنزل وأخذوا أحمد وخرجوا ...

""أمي!!!.. أحمد!! ماذا تقولين ...؟ "" قاطعتها..

كانت تتحدث وتزداد حدة بكائها أكثر ....

ثم تابعت: اتصلت بوالدك لأخبره بما حدث معنا ولكنه لم يرد ...فاتصلت بالعيادة ولم يرد أحد ...اتصلت بالسكرتيرة كثيراً وبعد فترة ردت وكانت تبكي وتصيح ...وأخبرتني أنه حين كان والدك خارجاً من العيادة أطلق عليه أحد ما رصاص وقتله ...

لم أتمكن من فهم أخر كلمات قالتها أمي ...ولم أعلم أكان ذلك بسبب صوتها الذي لم يكن واضحاً بسبب بكائها الشديد أم بسبب الأرض التي أطبقت فجأة على صدري فلم أعد أستوعب أي كلمة مما تقول فجأة شعرت بأن الأرض بدأت تدور بسرعة وإنني أفقد تواصلي مع الحياة .... وكأن مخرزاً دخل في قلبي وسكن به...البارحة كنا

نتناول الفطور معا ...وكنا نضحك ...وكان يخبرني بأني سأكون طبيبة عظيمة ...البارحة فقط قال بأنه لن يزوجني لأي كان ...بل أنه لن يزوجني أبداً ...قال لي كيف سأسمح لأحدهم أن يمسك بيد ملاكي ويذهب بها بعيداً عني..

البارحة كان أحمد يحكي لي عن حبيبته ولاء.. كان يقول لي بأنه سيتكلم مع أبي وأمي حتى يخطباها له في الصيف بعد التخرج فوراً ...البارحة كان كل شيء جميل.. كيف حدث ذلك ...كيف انقلبت جنتي إلى جحيم .... كان كل شيء فوق طاقتي لم أتمكن حتى من التفكير بالموضوع ...أبي ...الرجل الذي لم ولن يشبه أحد يوماً لم يعد موجود ...لن أسمع صوته بعد ذلك.. لن أسمع ضحكته وهي تملأ المنزل ....

أحمد أخي وحبيبي ...ماذا حدث لك وأين أنت.. كيف وأين سأرتمي بحضنك وأخبرك ما حدث لنا...إنني في حاجة ماسة لك يا أحمد الآن أين أنت....

مرت عدة أيام.. لم أستطع أن أبكي أبداً ...لم تخرج من عيني دمعة واحدة ...ولا حتى من فمي ...لم أستطع الكلام ولا البكاء ...كان الجميع يقول لي: أبكي تكلمي حتى ترتاحي ولكنني كنت أشعر أن دمي ودموعي قد جفت كلها فجأة...

قالوا أن التهمة الموجهة لهم هي مساعدة الإرهابين ومداواة جراحهم .... سألت نفسي عن أي ارهابين يتحدثون .... لم أرى إرهابي واحد يدخل منزلنا ...جميعهم كانوا أبناء جيراننا وأصدقائهم ...كانوا شباب صغار لم أسمع من أي حد منهم كلمة عن التخريب أو حتى الإرهاب. كانوا يقولون نريد حريتنا ...نريد أن نكون أحرار بأفكارنا وكلامنا ...لا نريد أن نخاف أو تهان كرامتنا ...لم أسمع سوى تلك الكلمات ...حتى أني رأيت أكثرهم يبكي وهو يتألم يريد أمه كالأطفال...

كانت الأيام تمر علي بسرعة كبيرة...كنت أعيش في وحدة شديدة حتى أمي المسكينة التي كنت أشعر أنها بحاجتي في تلك اللحظات لم أكن بجانبها ...حتى أني لم أكن أنظر بعينيها.. كنت أخاف أن أرى أبي فيهما ...

لم نعرف أي شيء عن أحمد ...وكلنا له محامي ليجده ويدافع عنه بدون أي فائدة ...

كنت أتابع المظاهرات في كل مكان.. كانت تزداد كل يوم أكثر فأكثر وتزاد دموية أكثر فأكثر ...و كنت أذهب إلى جامعتي كل يوم بعزم وقوه أكبر ...لم يعد هدفي أن أتعلم لأتخرج فقط ...كنت أريد أن أتعلم كل شيء، لأخذ ثأري، كانت معدلاتي في الجامعة ترتفع ...لم أترك محاضرة أو درس عملي إلا وقد حضرته.. حتى أنني كنت أحضر مع مجموعات

وسنوات أخرى ...كنت أريد أن أحصل على كل معلومة ممكنة وعلى كل خبر يساعدني بالانتقام لأبي وأخي نعم فالانتقام كان هو الشيء الوحيد الذي أسعى له في ذاك الوقت ولم أكن أعلم أن هناك أشياء أسمى من الانتقام قد تولد في داخلي....

في شهر 11 عام 2012 م فرض حصار على إحدى القرى المجاورة لنا ,لم أكن هناك ولكني بدأت أبحث عن أي طريقة لأصل إليها , شعرت أنها فرصتي حتى أثأر ..كنا نسترق الأخبار من هنا وهناك كل يوم عن القصف الذي تتعرض له المدينة وعن حالة السكان هناك وعن المدنيين والأطفال والنساء ,لم أعلم كيف سأصل إلى هناك ...بدأت أبحث بداخل ذاكرتي عن أحد الشباب الذين ساعدهم والدي..تذكرت أنه في يوم جاء شاب من تلك القرية إلي أبي وكان مصاب برصاصه بيده ,وظننت أنه يستطيع مساعدتي , بحثت في دفاتر أبي التي كان يسجل فيه كل أرقام الهواتف فهو لم يثق يوماً بالتكنولوجيا ,كان يصر أن يحتفظ بالأرقام مكتوبة وبالصور مطبوعة حتى لا تختفي بتعطل الجهاز أو إتلافه...

وفعلاً وجدت رقم الشاب كان أبي قد سجل اسمه رامي ، حاولت الاتصال به كثير لم يرد كان هاتفه مغلق، فأرسلت رسالة نصية قلت

له بها: أنا أروى ابنه الدكتور رضوان نسيت لدينا ما كان بيدك اتصل بي حين تصلك رسالتي لأرد لك ما نسيت...

كنت أراقب هاتفي في كل لحظة لم أجعله يغب عن عيني أبدا.

مر أسبوع كامل لم يصلني أي رد ...خفت كثير أن يكون قد حصل له مكروه أو أن يكون غير رقمه ...

وفي يوم من الأيام رن هاتفي كان رقماً غريباً... سمعت صوت يقول: أروى ابنه الدكتور رضوان اليس كذلك!! أتذكرك جيداً وأتذكر والدك، لن أنسى أبداً ما قمتم به من أجلي، أخبريني ماذا حدث ماذا تريدين، وما هي أخبار الدكتور رضوان وأخي احمد ...

سيطر علي الصمت للحظة قطعها بقوله: أتسمعينني جيداً.. الو. الو..

أجبته فوراً: نعم أسمعك جيداً يبدو إنك لم تعلم ماذا حدث معنا..

رد علي: ماذا حدث أخبريني..

قلت له :لقد قتلوا أبي واعتقلوا أخي ولا نعرف عنه شيء.

صرخ متفاجئً: ماذا ؟؟ماذا تقولين ؟؟كيف ومتى لم أسمع بذلك.. سامحيني أرجوك لم أعلم ما حدث..

قاطعته: لا تهتم أريد منك طلب الان، هل أنت في قريتك؟؟

قال: ممم لماذا تسألين.

قلت له: لو سمحت أجب.

قال: نعم أنا هناك ولكن البارحة خرجت أريد تأمين بعض أغراض الإسعافات، الوضع الإنساني هناك سيء جداً..
رغم سوء الأخبار التي سمعتها منه ولكني قد شعرت بفرحة غريبة وقلت له فوراً: أريد الذهاب إلى هناك؟
رد على بصوت المتفاجئ: تذهبين إلى أين؟؟
قلت: أريد الذهاب إلى مدينتك معك، أريد أن أساعدكم هناك، لا تنسى أني تلميذة أبي وإني طالبة في كلية الطب وقد تعلمت كثيراً..
قاطعني: مستحيل لن تذهبي ولن أكون مسؤولاً عن ذلك، أهكذا أرد الجميل لوالديك بان أخذك إلى الهلاك؟؟ انسي الموضوع وتابعي دراستك..

صمت قليلاً فقلت له: حسناً إذا لا تريد أن تساعدني سأجد طريقة أخرى أذهب فيها إلى هناك سأراك هناك.. وداعاً وأقفلتُ الهاتف وكلي قهر وغضب ...
لم تمض ساعتين إلا وقد رن هاتفي من جديد كان هو قلت له: تفضل بماذا أستطيع مساعدتك.
رد علي: هل أنت مصرة على الذهاب.
قلت له: بلهفة طبعاً مصرة وكلي ثقة بما أريد..

قال: أتستطيعين تحمل كم الألم الموجود هناك؟؟ ستموتين بأي لحظة..

قلت له: نعم أنا جاهزة ...قال: ستجوعين وسيأكل الجوع من أحشائك وسينهش من جمالك وصفائك؟؟

قلت له: نعم أنا جاهزة لكل شيء أرجوك لا تحرمني من فرصة الانتقام لأبي وأخي ...

صمت قليلاً وقال: حسناً استعدي وكوني جاهزة سأتصل بك وأخبرك بوقت الانطلاق..

قلت له وقد غمر الفرح قلبي: لا تقلق ستجدني جاهزة متى تريد .... أغلقت الهاتف وبدأت أجمع كل شيء قد أحتاجه هناك.. أدوية قطن مطهرات عدة خياطة.. جهزت حقيبة صغيرة كحقيبة أبي ووضعت القليل من الملابس وكنت انتظر الاتصال بفارغ الصبر، لم أخبر أحد ولم يشعر بي أحد. أمي المسكينة التي لم تنضب دمعتها بعد على أبي وأخي ، حتى أني شعرت أنها أخذت دموعي وأصبحت تبكيها عني وأنا التي أصبحت عاجزة عن البكاء...

وأخيراً جاء تلك اللحظة، كانت الساعة الثانية ليلاً، اتصل رامي بي وقال: نحن بباب البناية إنزلي فوراً ولا تشعري بك أحد.

وهذا ما حدث نزلت وكأني ريشة هواءٍ أطير, ركبت في السيارة كان فيها ثلاث شبان أحدهم رامي لم أتعرف عليه في البداية كانت ذقنه قد طالت وخسر الكثير من الوزن ,عرفني على الشابين الأخرين مهند ومعتز من نفس المنطقة ...جلسنا في السيارة وخيم الصمت في السيارة ,لم يتحدث أي أحد منا بأي كلمة ...طوال الطريق ,كنت أشعر ببعض الخوف والقلق ..ولكني كنت أقرأ سورة الإخلاص ...كانت أمي تقول لي :إقرئيها حين تشعرين بالخوف أو الحزن فهي اعتراف منك بإخلاص ما في قلبك لله وحده وهو لن يخيبك أبداً ...إقرئيها وسترتاحين...كنت أعيدها وأكررها مرات...شعرت انني لست الوحيدة الخائفة بل كانوا جميعهم كذلك ...

قطعت صمتهم وقلت: أسمعتم أخر طرفة؟؟؟

نظروا إلي جميعاً بدهشة شديدة غريبة !! ثم قال رامي: لا لم نسمع، أخبرينا أنت...

قلت لهم: سمعت أن هناك إمرأة عجوز كانت تركب الباص حين وصلوا إلى أحد الحواجز التي كان يقيمها الجيش ...نزل كل من في الباص لتفتيش، وحين طال الأمر قالت تلك العجوز لأحد العناصر بغضب وباللهجة العامية: خلصونا بدنا نمشي كل يوم تفتيش تفتيش....

رد عليها وكان هادئ الأعصاب: أنتو بدكم حرية يا حجة،
ردت عليه وقدد ارتسمت على وجهها الصدمة: لاا لا يا خيي نحنا ما بدنا حرية، نحنا بدنا اسقاط النظام .....
وفجأه انفجر الأربعة بالضحك .... وكأن ذلك الخوف انقلب فجأة إلى موجة ضحك هستيرية غريبة...
قال رامي: يبدو إنك تملكين موهبة والدك الدكتور رضوان، لقد سمعت أنه كان طبيب محبوب لدى الأطفال وحتى الكبار يحول خوفهم لضحك وفرح وقد رأيت جزء من ذلك حين رأيته ..."صمت قليلاً وقال: رحمه الله ...
ثم عاد الصمت في المكان ...كنت أفكر بأبي وبأحمد وبأمي هل كان سيروقهم ما فعلت حقاً، أم أنهم كانوا سيغضبون مني .....
وصلنا إلى مكان مظلم جداً وأصوات الانفجارات كانت تهزه المكان، قال رامي: الآن تجهزوا سندخل، حملنا الحقائب والكثير من الأكياس، وأخرج رامي ضوءً من جيبه أشعله وأطفأه ثلاث مرات وأشار إليه أحدهم بثلاث مرات متشابهة...
تقدمنا قليلاً وإذ نحن أمام حاجز وفيه عنصران من الجيش ...تفاجأتُ من منظرهما وشعرت بالخوف ولكن ذلك الشاب الآخر الذي كان

يدعى معتز أحس بخوفي وقال: لا تخافي إنهم معنا سيساعدوننا في الدخول ...

وبهدوء شديد دخلنا .... نظرت إلى وجه العنصرين كان يبدو عليهما أيضاً الخوف مثلنا بالضبط ...قالوا لنا: ليكن الله معكم وينصركم... جلجلت كلماتهم في رأسي جلجلة، كيف يقولون لنا ذلك ونصرنا هو هزيمتهم ...نصرنا هو موتهم.؟؟

اجتزنا الطريق ووصلنا أخيراً إلى المدينة.... كانت مظلمة جداً ...وصاخبة بأصوات القصف .... ولكن القمر أبى إلا أن يكون بدراً ينير الشوارع كالمصباح وينير أمل قلوبنا بالنصر ...وصلنا إلى أحد المنازل، ونزلنا إلى قبو كبير مليء بالمصابين ...نساء أطفال ورجال، كان الكل يتألم ...شعرت بانقباض في صدري فجأة من هول المنظر، لقد حولوا ذلك القبو المعتم الى مشفى ميداني بسيط ...فيه أسره كثيرة ومختلفة يبدو أنها جمعت من المنازل.. كان هناك إضاءة خافته جداً

إلتفتُ إلى معتز وسألته: من أين تأتون بالكهرباء إلى هنا، قال لي من المولدات، نحضر المازوت تهريب خصيصاً من أجل هذا المستشفى الميداني البسيط لنساعد الناس ...وأنت هذا هو مكانك، هل أنت جاهزة؟؟

لم أعلم للحظة هل أنا جاهزة أو لا ؟؟هل أنا نادمة أم لا؟؟؟

كان كل شيء يدور في رأسي بسرعة ؟؟ولكني أجبته فوراً: نعم طبعا جاهزة...

جاء شاب يرتدي مريول أبيض، لم أعلم لماذا رأيت أحمد فيه.. كان يشبه بالشكل أحسست بخفق شديد في قلبي .... حتى أنني لم أستطع أن أزيح عيني عنه ...قاطع تأملي صوت رامي الذي قال: طبيبنا الغالي تحياتي ...

رد عليه :الحمد لله على سلامتك، أتمنى من الله أن تكون رحلتك موفقة؟ هل أحضرت ما طلبته منه؟

قال رامي: نعم أحضرت لك ما طلبت وزيادة، كما قد أحضرت لك هدية ثمينة، ابنة الدكتور رضوان الذي أخبرتك عنه.

نظر إلي وابتسم وقال: أهلا بك، لقد سمعت كثير عنكم، الكل هنا يتحدث عما قدمتم للمصابين أثناء المظاهرات.

ومد يده يصافحني وقال: أنا الدكتور حسام تشرفت بك، أعتبري هذا المكان مكانك وإن كان متواضع...

مددت له يدي وهي ترتجف كنت خائفة أن يستطيع سماع صوت دقات قلبي التي أصبحت كدق الطبول، وقلت له: أهلا بك أنا أروى طالبة في كلية الطب ...

وهنا بدأت حياتي الجديدة، مهما حاولت أيها القارئ تخيل الوضع هناك فأنت قاصر بتخيلك وتصورك..

فبقدر الألم والحزن الذي كان مخطوطاً على الوجوه.. ومرسوم على الجدران.. هناك أيضاً الأمل والتفاؤل ....

كان الأمل أهم بالنسبة لهم من الأكل والشراب الذي ندر ما تراه.

أخذني الدكتور حسام جولة في المستشفى كانت صغيرة وكل ما فيها بسيط...كان هناك غرفة عمليات صغيرة جداً ..... تحتوي على بعض المعدات ...نظرت إلى دكتور حسام وقد امتلئ قلبي بالصدمة؟ أهنا تسعفون الجرحى وتعالجون المرضى؟؟؟

ابتسم وقال.. "في حدود هذا المكان الصغير ساعدنا الكثير من الناس وأنقذنا آلاف الأرواح لا تستهزئي به.

نظرت إلى الأرض وشعرت بضيق شديد..

قال لي: انتظري لا تجعلي اليأس يتمكن منك منذ اليوم الأول تمسكي بتلك الابتسامة الجميلة نحنا بحاجتك قوية، وإن شعرتي بأنك لن تستطيعي إكمال ما بدأتِ أو شعرت بالندم قولي ذلك فوراً وسنجد طريقة لتخرجي...

نظرت إليه وأحسست أن أحمد هو من يتكلم ...فتابع قائلاً : نحن هنا لا نساعد المرضى والجرحى فقط.. نحن نصنع الأمل هنا صدقيني ...

أحسست أن كلماته أعطتني قوة وإرادة وتصميم لأتابع ما بدأت به.
كان القصف شديد على المدينة، وكانت الأصوات مرعبة، كنا ننطق الشهادة كل لحظة، نحاول أن نتعايش مع ما نحن فيه، كنت أعمل حتى دون أن أفكر، لم أكن أنا فقط من يعمل هكذا، كان الطاقم الطبي كله كذلك، فلو أننا فكرنا للحظة بكم الموت المحيط بنا وعدد الشهداء الذين ينطقون الشهادة بين يدينا وبحجم التحدي الذي يبدأ مع صوت كل قذيفة أو صاروخ، أو مع كل هزة أرض حين تنهدم إحدى البنايات كنا سننهار فوراً ولكننا كنا نركض في كل مكان نسعف نداوي وكنا أحياناً أخرى نلقن الشهادتين .....

أذكر في إحدى الليالي كانت أصوات القصف تدوي، وسمعتهم يتحدثون عن أحد الأقبية المليئة بالأطفال والنساء والرجال كبار السن، كانوا يتحدثون عن مجموعة من الأطفال قد أصابتهم نوبات من الفزع والرعب بسبب القصف الشديد وقلة النوم، طلبت الإذن لأذهب إلى هناك، كان الوضع أكثر من مؤلم.. كانت أعينهم قد جحضت وأعصابهم قد أرهقت من الخوف والرعب ...

خطرت ببالي فكرة... فأسرعت إلى رامي أبحث عنه ...

"رامي رامي لدي فكرة عظيمة أريد مساعدتك "ناديته

فرد علي: تفضلي أنا جاهز ماذا تريدين مني ...

قالت له: أريد عود ...

نظر الي وكله دهشة: عود؟؟عود للعزف ؟؟وماذا تريدين به؟؟

قلت : أريده في شيء هل يمكن أن تجده لي هنا..

صمت قليلاً وقال: سأحاول ليس صعبة ولكن أمهليني بعض الوقت لأسأل الشباب ...

شكرته وعدت إلى المشفى الميداني وأنا أنسج كمية من الأفكار لمساعدة أولئك الماكثين في ذلك القبو ...

وفي اليوم التالي كنت أقف مع الدكتور حسام جاء رامي وجلب لي العود وقال: اهتمي به إنه أمانة لديك.. شكرته كثير ...لم أصدق أنه قد استطاع أن يجلبه لي ...جلست فوراً وبدأت العزف.. لم أكن أتوقع أن تلك الدروس التي أخذتها في معهد الموسيقى قد تنفعني في هذا المكان ...

كان رامي والدكتور حسام ينظران إلي وقد ارتسمت الدهشة على وجههما .... كنت قد بدأت العزف ولم أشئ أن أتوقف ...ولكن أصوات التصفيق من حولي هي من أخرجتني من تلك الحالة الجميلة التي كنت أعيش بها ...

ذهبت إلى ذلك القبو مع رامي والدكتور حسام الذي أصر أن يرى ماذا أريد أن أفعل ...جلست وكان كل من في القبو ينظرون إلى باستغراب

وبدأت العزف .... وبدأ أعزف أغنية الليل يا ليلى يعاتبني .... وماهي إلا دقائق حتى تعالت الأصوات معي ...نعم كانوا يغنون معي "" الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلم على ليلى ...الحب لا تحلو نسائمه إلا إذا غنى الهوا ليلى"" ...

وكانت أصوات التصفيق مع نغمات العود وصوت غنائهم أجمل ما سمعت أذني.. كانوا كسمفونية خلابة .... وبدأنا ننتقل من معزوفة الى أخرى.. لم أكن خبيرة جداً ولكنهم قد أعجبوا بعزفي ...وبعد ساعة متواصلة من العزف نظرت وإذا بكل الأطفال قد ناموا بهدوء شديد.. ليس فقط الأطفال، بل إن أكثر الموجودين قد غفى ...لم أكن سعيدة يوماً كما أنا معهم .... فرغم شدة الألم وخوفهم استطعت أن أخفف عنهم قليلاً ...

خرجنا من القبو، كان الدكتور حسام متفاجئ جداً...حتى أنه لم يحرك عينيه عني ..... ودعنا رامي واتجهت مع الدكتور حسام إلى المستشفى ...في ذلك اليوم ونحن في الطريق.. إقترب مني وقال : كم أنت فاتنة يا أروى ...أتمنى لو أنني إلتقيتك في زمان بعيد وفي مكان آخر ....

كانت صوت دقات قلبي قد ارتفع ...لم أستطع تحرك عيني عن عينيه لحظة..

قد يحدث أن تعيش في حياتك تفاصيل كثيرة لا تشعر بها، فيأتي أحدهم فجأة يجعل من كل التفاصيل الروتينية شيء جديد لم تعهده سابقاً...فدقة القلب الطبيعية تصبح أنغام، وابتسامة أحدهم تكون سبب في سعادتك بالرغم من كل الظروف القاهرة المحيطة بك ...وهذا ما حدث معي فعلاً ...على الرغم من كم الألم والخوف المحيط بي الآن أصبحت أحس نفسي في الجنة...

وهكذا تغيرت حياتي ...كانت تمر علينا الأيام نحارب فيها الموت كل يوم ...كنت أشاهد قصص لو أنها رويت لي لم أصدقها أبداً، بالرغم من أصوات القصف والانفجار وأصوات الصراخ والبكاء، كان يجب أن نتمالك أعصابنا ونكون أقوياء، كان كل الفريق يعمل ليل نهار وكلما اشتد القصف ازدادت التحديات علينا جميعاً ،كانوا جبارين حقاً رغم قلة الموارد والأدوات كانوا يستطيعون عمل الكثير، كان كل ما تعلمته في جامعتي شيء وما رأيته وعايشته هناك شيء أخر تماماً، كانوا يستخدمون أشياء بسيطة بدائية لإنقاذ الأرواح.

وكان كل يوم يمضي يقربني من الدكتور حسام أكثر مع أننا لم نعد نتكلم كثيراً بسبب العمل المستمر لكلينا ...فقد كنت أذهب في الأوقات التي يهدأ القصف لأساعد الأطفال على النوم.. وأجلس معهم

نتحدث ونغني نحكي قصص وطرف لننسى كم الخوف الذي بداخلنا...

كنا ننام على مراحل ساعتين أو ثلاث ساعات بحسب الأوضاع المحيطة والحالات الموجودة في المستشفى، وفي أيام كثيرة لم نستطع النوم أبداً، ولكن كل ذلك لم يعني لأي منا شيء، بالعكس كنا دائماً نرى أننا مقصرين في أعمالنا وأننا لا نفعل شيء يذكر ،كانت الدروس التي حصلت عليها من هذه المدينة أقوى وأعظم من أي دروس أخرى قد تكونوا سمعتم بها..كان علينا أن نبقى صبورين أقوياء ونحن نودع كل يوم الكثير من الأرواح ... كان علينا ان نبقى أقوياء ونحن نودع أرواح أناس أعزاء علينا جمعتنا معهم أيام القهر ...

وبعد مرور عامين على هذا الحال وفي أحد الأيام كنت أستريح وقد غفوت على الطاولة ...طُرِق الباب ودخل رامي وحسام و كان يبدو عليهم الحزن.. شعرت أن قلبي قد وقع للحظة..

سألتهما :ماذا هناك ...ماذا حدث؟

قال رامي: لا أعلم ماذا أقول لك.. لقد قدمت للتو من العاصمة..

قاطعته: الحمد لله على سلامتك ما الأخبار هناك؟

هل زرت أمي.؟

سكت وأطرق عينيه في الأرض ثم قال :نعم لقد ذهبت ولكن!!
ماذا هناك يا رامي أخبرني ..."
"أمك مريضة جداً إنها في المستشفى و قال لي جدك أن عليك الذهاب إلى هناك فوراً.."
لم أستوعب ما قاله جيداً: فقلت له جدي مريض وأمي تريدني الذهاب هذا ما تقصده صحيح...؟
أعاد على ما قاله: أمك هي المريضة وجدك من قال أن عليك الذهاب إليها فوراً ....
شعرت أن الدنيا كلها بدأت تدور بي.. صحوت بعدها وأنا على السرير ...ولأول مرة أبكي ...لم أستطع أن أضبط أنفاسي المتتالية ولا دموعي ...ولكن حسام حضنني بشدة.... نعم حسام فهو في تلك اللحظة لم يعد بالنسبة إلى الدكتور حسام ...شعرت انه أصبح جزء مني لا يتجزأ، شعرت أنني انصهرت وذبت والتصقت به ....
لم أعلم ماذا على أن أفعل.. قال رامي: استعدي الآن سنذهب فوراً إلى هناك ...
نظرت إلى حسام ... كان علي أن أذهب حقاً.. كان علي أن أترك كل شيء وأذهب ...

وهذا ما حدث فعلاً.. بدأت أحضر نفسي للذهاب ودعت أصدقائي في المستشفى وانطلقت.. أصرَّ حسام أن يرافقنا حتى آخر مكان مسموح له ...وقفت أنظر إليه ولأول مرة كنت أمسك يده وولم أرغب في أن أفلتها أبداً...كانت عيناه تلمعان من الدموع التي يحبسها فيهما ...وفجأة أخرج من جيبه خاتم.. نعم أنه خاتم خطبة.. كان بسيطاً وجميلاً جداً. وقال لي:هذا خاتم والدتي طلبت أن أمنحه لمن خطفت قلبي... أتقبلين الزواج بي حين تعودين؟؟

لقد فاجأني حقاً.. وغمر قلبي بفرحة لم يشهدها قبلاً رغم ما كنت أمر به ...قلت له: وكيف لا أقبل وقد أصبحت مني كلون دمي الأحمر، كيف لا أقبل وقد أصبحت مني كالروح للجسد...ابتسم وألبسني الخاتم وقال: أذهبي واطمئني على حماتي وأخبريها عني وعودي ...سوف أنتظرك لترجعي إلي ....

وحضنني وبشدة أحسست أن صدري سينطبق بين ذراعيه.. قبل جبيني ...وقال: اذهبي ...لا إلهَ إلا الله ...قلت له وقد انقبض قلبي فجأة: محمد رسول الله..

وصلت إلى المستشفى كان جدي وجدتي هناك، ركضت إليهما شعرت بأني لم أغب عنهم عامين فقط بل عشر أعوام ...قد أصبحا كهلين ...

ركضت إليهما وصرت أحضنهما.. كانا غاضبين مني لأني تركتهم حتى دون أي وداع ولكن ما غفر لي أني كنت أبعث لهم رسائل وأخبار مع رامي كل ما سمحت لي الفرصة. سألت جدي: ما الذي حدث مع أمي أخبرني يا جدي...

قال: رأت صور لشباب استشهدوا تحت التعذيب وفجأة بدأت تصرخ وتبكي وتقول أحمد إنه أحمد...حاولنا أن نهدئها ولكنها لم تهدأ ظلت تبكي حتى انهارت وأحضرناها الى المستشفى.. وضعها لا يتحسن أبداً ولا تستجيب لأي دواء..

أمسكت يد جدي وقلت له: ماذا تقول...أحمد ؟؟هل أمي رأت أحمد حقاً...قال : لا نعلم الصور ..فأجساد الشباب قد شوهت لا نعلم حقاً إن كان هو أم لا..

لم أعلم وقتها ماذا على أن أفعل أأركض لأرى تلك الصور التي يتحدثون عنها لأطمئنها و أطمأن نفسي أم أدخل إليها.

وفي النهاية دخلت إليها، كانت تنام على السرير وصوت الأجهزة من حولها ينحت خلايا رأسي.. مع أنني قد اعتدت عليها، ولكن هذه المرة لم تكن كغيرها ...إنها أمي ...كبرت كثيراً...لم تكن كبيرة هكذا عندما تركتها.. حتى أنها قد فقدت وزنها أصبحت عجوز هزيلة..

أخذت تقرير الطبيب وبدأت اقرأ.. سكري ضغط.. قصور في عمل القلب وأخيراً.... غيبوبة سكر ..... ما هذا كله.. أمي لم تكن تعاني أي من هذه الأمراض حين تركتها ...متى حصل كل هذا.. نظرت إليها وأحسست أن شبح الموت الذي كان يحوم كل يوم في شوارع تلك المدينة قد جاء إليها وبدأ يحوم حولها.... لم أتمالك نفسي ...جلست أقبل يدها وأبكي: أرجوك يا أمي استيقظي أنا أروى لقد عدت يا أمي أرجوك لا تتركيني أرجوك...

حركت يدها أظن أنها سمعت صوتي ولكنها لم تفتح عينيها.. بقيت مع أمي عشر أيام لم أفارقها أبدا أخبرتها أن من رأته ليس أحمد وأن أحمد حي يرزق وأنهم أخبروني أنه سيخرج قريباً ...إختلقت هذه القصة لتهدأ وترتاح.. ولكن من الذي سيطفئ نار قلبي التي اشتعلت عليه.. أمعقول أنه هو.. وأن إحساس الأمومة هو من أخبرها بأنه هو.. أليس هناك شعور للأخت كشعور الأم ذاك الذي يستطيع أن يخبرني إن كان هذا أحمد أم لا.... ولكني كنت أهرب من التفكير في الأمر.. كان المهم بالنسبة لي في ذلك الوقت أن تتحسن أمي فقط.. بدأت تستيقظ وتحدثني ...كانت سعيدة جداً لرؤيتي بجانبها، كنت أتحدث لها عن حسام ورامي وكل أصدقائي الذين تركتهم خلفي.. كانت فخورة جداً بي...وفرحت كثير لخبر خطبتي من حسام.. صارت تحلم

بالزفاف الذي ستقيمه لنا ...كنت أجاريها اوأضحك.. هي لا تعلم أني يجب أن أعود...أمي التي منذ وفاة والدي لم تعرف طعم السعادة ...كنت أشعر أن الامل شعّ في عينيها فجأة حين رأتني وأخبرتها عن حسام... لم أستطع طوال العشرة أيام من أن أعرف أي خبر عن تلك المدينة أو عن رامي أو حسام. حتى أن رامي منذ أن أحضرني إلى المستشفى لم أره أبدا. أحسست بضيق في صدري ولكن لم أستطع ترك أمي أبداً...وكان تداول أي خبر عن تلك المدينة الملاصقة للعاصمة والتي تباد كل يوم بين الناس أمراً محرماً.. وكأن تلك الأصوات التي تملأ الدنيا كل يوم وكل ليلة ما هي إلا زقزقة عصافير ...كم كرهت مدنيتي تلك الفترة ...كرهتها وكرهت كل من فيها وأنا التي كانت تعشق ترابها...كانوا يعيشون حياه طبيعية...لم أرى أحدهم حزيناً أو ولم أسمع أي أحد يتحدث عما يحصل في المناطق المجاورة ...وكأنهم طمسوها وطمسوا كل أهلها... تباً لهم وتباً لك أيتها المدينة المنفية عن الواقع....

عدنا إلى المنزل بعد أن تحسنت أمي واستعادت عافيتها ...وأنا كنت أبحث عن أي خبر عن حسام وباقي الشباب هناك...

حاولت الاتصال برامي لعله في العاصمة بعثت له رسائل ولكنها لم تصل ...أحسست بنار تحرق صدري، تذكرت معتز ذلك الشاب الذي

أوصلنا أول مرة قلت في نفسي: لابد أنه يعرف أي شيء، فاتصلت به كثيراً وأخيراً أجاب..

السلام عليكم أنا أروى كيف حالك يا معتز.. أتذكرني.."

رد علي: أروى من أروى ؟؟من أنت؟ لا أعرف أحد بهذا الاسم....

قلت له: أروى صديقة رامي أتذكرني...

صمت قليلاً وقال: سأتكلم معك بعد قليل الآن مشغول...

وأغلق الهاتف.. وبعد أقل من نصف ساعة اتصل بي من رقم غريب..

"ألو أروى كيف حالك.. أخبرني عنك.. هل أنت بخير.. من أين تتصلين ...؟

رددت عليه: أنا بخير.. كيف حالك أنت؟..

قال: أنا بخير الحمد لله أنك بخير، الحمد لله أنك نجوت..

أجبته: نجوت؟؟من ماذا نجوت عن ماذا تتحدث"

قال: أين أنت الآن؟؟ ألست في المدينة؟

أجبته: لا لقد خرجت منذ عشر أيام بسبب ظرف خاص أصابني ولا أعلم ما هي الأخبار هناك؟حاولت الاتصال برامي ولكنه لا يرد علي..

صمتُ قليلاً وقال: إذا لا تعلمين ما الذي حدث؟

أجبته: لا ماذا حدث أخبرني أرجوك..

قال :لقد قصفوا المشفى الميداني الذي كنت تعملين به..

صرخت به: ماذا تقول.. معتز أرجوك أعد علي ما قلت.. قصفوا المستشفى الميداني...؟؟ متى حدث ذلك.؟

قال: منذ ثمانية أيام، قصفت الطائرات المستشفى بصواريخ حارقة و دمرتها.... واستشهد أغلب الطاقم الطبي هناك ...

أحسست بأن روحي بدأت تتسلل من أطرافي.. كيف حدث هذا حين تركتهم.. كانوا بخير...

ثم قلت وقلبي قد إشتعلت والدكتور حسام؟؟

قال: نعم للأسف الدكتور حسام قد استشهد ، ورامي أيضاً كان هناك...

بدأت كل الدنيا تدور وأنا كنت محورها..

كيف حدث ذلك؟؟ لماذا خرجت؟ لماذا لم أبقى معهم؟؟كنت أريد الموت معهم..

حسام... بدأت حياتي عندما رأيتك وهمست في أذني...حسام خاتمك في يدي ؟؟كيف ترحل وتتركني.... لم أعد أسمع شيء رميت الهاتف وسقطت على الأرض، شعرت أنني قد أصبحت يتيمة للمرة الثانية ...

كيف ستكون حياتي من بعد اليوم؟؟كيف سأعيش وقد فارقت روحي جسدي...

مكثت في السرير عدة أشهر، وأمي التي جئت لأساعدها هي أصبحت من تساعدني...سمعت بعدها بأن أهل تلك المدينة المصاحبة قد

عقدوا اتفاق لإخلائها من سكانها ...وفعلاً ذلك ما حدث ...خرجوا جميهم منها وتركوا معهم ذلك الامل الذي أحياهم لسنوات ...تركوا ورائهم كل شيء.. وخرجوا يبحثون عن أمل للحياة في مكان أخر...لعلهم سيجدونه يوما ما..

بينما أنا لقد عدت إلى جامعتي.. لعلي أكمل ما بدأه أبي وأحمد وحسام وأكون طبيبة رائعة كما كانوا...ولم أخلع خاتم حسام من يدي حتى هذه اللحظة.... ولا أظن أنني أستطيع ذلك ما حييت....

☆☆☆☆☆

# الفهرس

**الإهداء** ..... 5
**جدران الألم** ..... 7
**اسألوا شجرة الليمون** ..... 33
**سأكون لك حتى النهاية** ..... 63
**حب تحت سندان الحرب** ..... 79
**الفهرس** ..... 108

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع